رسائل الصفاء
- ٢ -

الصفاء والأصفياء

فوزى محمد أبوزيد
رئيس الجمعية العامة للدعوة الى الله
بجمهورية مصر العربية

دار الايمان والحياة
٧٤ شارع ١٠٥ حدائق المعادى
ت : ٣٥٠٩١٤٠

قال يحيى بن معاذ رضى الله عنه:

« إلهى إنى مقيم بفنائك، مشغول بثنائك، صغيراً أخذتنى إليك، وسربلتنى معـرفـتك، وأمكنتنى من لطفك، ونقّلتنى فى الأحـوال، وقلبـتنى فى الأعمال:ستراً وتوبة، وزهداً، وشوقاً، ورضاً، وحباً .. تسقينى من حياضك، وتهملنى فى رياضك .. ملازماً لأمرك، ومشغوفاً بقولك، ولما طرّ شاربى، ولاح طائرى، فكيف أنصرف اليوم عنك كبيراً، وقد إعتدت هذا منك صغيراً، فلى ما بقيت حولك دندنة، وبالضراعة إليك همهمة، لأنى محب وكل محب بحبيبه مشغوف، وعن غير حبيبه مصروف، وقد ورد فى حب الله تعالى، من الأخبار والآثار، مالايدخل فى حصر حاصر، وذلك أمر ظاهر، وإنما الغموض فى تحقيق معناه، فلنشتغل به ».

وقال أيضاً: « مثقال خردلة من الحب أحب إلى من عبادة سبعين سنة بلا حب ».

وقال أيضاً: « عفوة يستغرق الذنوب فكيف رضوانه؟ ورضوانه يستغرق الآمال، فكيف حبه؟ وحبه يدهش العقول، فكيف وده؟ ووده ينسى مادونه فكيف لطفه؟

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــــدمة

الحمد لله الذى نور قلوب أحبابه بنور معرفته، وملأ أفئدتهم من شراب وده، وأطلع أسرارهم على حقائق قدسه، فصاروا عنه ينطقون، وبنوره عز وجل ينظرون، وبحوله وطوله سبحانه يتحركون، فلا تقف بهم همة إلا إليه، ولا يسكن لهم وطر إلا عليه والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد بهجة القلوب، وبغية البصائر، وسرور النواظر، لكل قلب ذاكر، وعقل فاكر، وسرّ بين يدى مولاه حاضر.

وبعـــد

فإن بغية الواصلين، ومنتهى رغبة العارفين، وأمل كل المؤمنين هو الوصول إلى مقام يتم لهم فيه القرب من رب العالمين عز وجل وقد عبرّ عن ذلك الحلاج رضى الله عنه لحظة قتله حيث قال:

الله يعلم أن الروح قد تلفت	شوقاً إليك ولكنى أمنّيها
ونظرة منك يا سؤلى ويا أملى	أشهى إلى من الدنيا وما فيها
يا قوم إنى غريب فى دياركموا	سلّمت روحى إليكم فاحكموا فيها
ما أسلم النفس للأسقام تتلفها	إلا لعلمى بأن الوصل يحييها
نفس المحب على الآلام صابرة	لعل مسقمها يوماً يداويها

ولا يتم القرب من حضرة القريب عز وجل إلا بتحقيق الصفاء، حيث يقوم المريد بمجاهدة نفسه لمحو صفاتها المذمومة، وقطع العلائق كلها، والإقبال بكنة الهمة على الله تعالى، فإذا حصل ذلك، كان الله هو المتولى لقلب عبده، والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم، وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة، وأشرق النور فى القلب، وإنشرح الصدر، وإنكشف له سر الملكوت،

وإنقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة، وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية، فليس على العبد إلا الإستعداد بالتصفية المجردة وإحضار الهمة، مع الإرادة الصادقة، والتعطش التام، والترصد بدوام الإنتظار، لما يفتحه الله تعالى من الرحمة، فالأنبياء والأولياء إنكشف لهم الأمر، وفاض على صدورهم النور، لا بالتعلم والدراسة، والكتابة للكتب، بل بالزهد فى الدنيا، والتبرى من علائقها، وتفريغ القلب من شواغلها، والإقبال بكنة الهمة على الله تعالى، فمن كان لله، كان الله له.

والطريق إلى ذلك يكون بإنقطاع علائق الدنيا بالكلية، وتفريغ القلب منها، وبقطع الهمة عن الأهل، والمال، والولد، والبلد، وعن العلم والولاية والجاه، بل يصير قلبه إلى حالة يستوى فيها وجود كل شئ وعدمه، ثم يقبل على ذكر الله عز وجل بلسانه على الدوام مع حضور القلب، حتى ينتهى إلى حالة يترك تحريك اللسان، ويرى كأن الذكر جارياً على لسانه، ثم يصبر على الذكر إلى أن يمحى أثره عن اللسان، ويصادف قلبه مواظباً على الذكر.

ثم يواظب عليه إلى أن يمحى عن القلب صورة اللفظ وحروفه وهيئة الكلمة، ويبقى معنى الكلمة مجرداً فى قلبه، حاضراً فيه، كأنه لازم له، لا يفارقه، وله إختيار إلى أن ينتهى إلى هذا الحد، وإختيار فى إستدامة هذه الحالة بدفع الوسواس، وليس له إختيار فى إستجلاب رحمة الله تعالى، بل هو بما فعله صار متعرضاً لنفحات رحمة الله.

فلا يبقى إلا الإنتظار، لما لله من الرحمة، كما فتحها على الأنبياء والأولياء بهذه الطريق.

وعند ذلك إذا صدقت إرادته، وصفت همته، وحسنت مواظبته، فلم تجاذبه شهواته، ولم يشغله حديث النفس بعلائق الدنيا، تلمع لوامع الحق فى قلبه.

وهذا ما عناه أبو سعيد الخراز حين سئل عن الصوفى فقال: « من صفَى

ربّه قلبه، فإمتلأ قلبه نوراً، ومن دخل فى عين اللذة بذكر الله ».

وأشار إليه الكتانى فى قوله: « التصوف : صفاء ومشاهدة ».

وقد آثر فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود رضى الله عنه هذا التعريف على غيره فى حديثه عن التصوف وعلل ذلك بقوله فى كتابه: « قضية التصوف » صـ٤٣: « وإذا نظرنا إلى تعريف « الكتانى »، فإننا نجد أن عبارته المختصرة قد جمعت بين جانبين هما اللذان – فيما نرى – يكونان فى وحدة متكاملة – تعريف التصوف.

أحدهما: « وسيلة »، والثانى: « غاية » أما الوسيلة: فهى « الصفاء »، وأما الغاية: فهى « المشاهدة ».

والتصوف من هذا التعريف طريق، وغاية. وطريقه يتضمن نواحى كثيرة تشير إليها تسميته نفسها، ولعل ذلك من الأسرار التى كانت السبب فى هذه التسمية، وإتخاذها عنواناً على هذه الطائفة.

لقد قال جماعة: إنما سميت « صوفية » لصفاء أسرارها، ونقاء آثارها.

وقال بشر بن الحارث: الصوفى من صفا قلبه لله.

وقال بعضهم: الصوفى من صفت لله معاملته، وصفت له من الله عز وجل كرامته، وهؤلاء يهدفون إلى أن كلمة « الصوفية » إنما تشير إلى الصفاء، وهذه الإشارة لا تخضع لمقاييس اللغة، ومادامت إشارة فإنه من التعسف أن يجادل إنسان فى أمر إنسجامها مع اللغة، وعدم إنسجامها.

ويقول قوم إنهم إنما سموا: « صوفية » لأنهم فى الصف الأول بين يدى الله عز وجل، بإرتفاع هممهم إليه، وإقبالهم بقلوبهم عليه، ووقوفهم بسرائرهم بين يديه.

وهؤلاء إنما يعبرون عن إشارة الصوفية إلى الصف: أى إلى الصف

الأول فى العمل على الوصول إلى الله والجهاد فى سبيله.

أما إشارة الكلمة إلى « أهل الصفة »، الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنما تشير إلى أوصافهم من العبادة، والتهجد، وعدم الطمع فى الدنيا، وإستعدادهم الدائم للجهاد فى سبيل الله.

وتشير الكلمة للصِّفَة: أى الصفة الكريمة، التى لا يتعلق فيها القلب بالمادة وإنما يتعلق بالله تعالى.

وكل ذلك إنما هو حديث عن الوسائل، على أن هذه الوسائل التى تشير إليها الكلمة لها وسائل أخر، هذه الوسائل الأخر منها ما يعبرون عنه بقولهم: « لا يَمْلك ولا يُملك ». ويعنون بذلك أنه لا يسترقه الطمع.

وهذه الكلمة لها مدلول واسع هو أن يتحرر الإنسان من الدنيا، حتى ولو ملكها عريضة طويلة، يتحرر من الجاه، من الإنغماس فى الملذات، من الجرى وراء المال، من حب السلطان، من حب الترف، من الصفات التى تتنافى مع الفضيلة.

وخاتمة المطاف فى هذه الوسائل: أنها تؤدى إلى الصفاء، فإذا ما حل الصفاء كان عند الإنسان إستعداد كامل للمشاهدة، فيجود الله عليه بها، إن شاء.

هذه المشاهدة هى أسمى درجات المعرفة، وهى الغاية النهائية التى يسعى وراءها ذوو الشعور المرهف، والفطر الملائكية، والشخصيات الربانية.

فالتصوف إذن معرفة – أسمى درجات المعرفة بعد النبوة – إنه مشاهدة وهو طريقة إلى المشاهدة » إنتهى ثم يزيد المسألة إيضاحاً فيقول صـ٤٦ من نفس المرجع: « والمشاهدة التى هى الغاية للصوفية هى أيضاً تحقيق واقعى للتعبير، الذى ننطق به فى كل آونة تحذف حيثما نقول : « أشهد أن لا إله إلا الله ».

فالشهادة هي غاية الصوفى، وهو إنما يسعى جاهداً إليها بشتى الوسائل ليحقق بالفعل مضمون ما يلفظ به قولاً، أو ما يقوله حروفاً.

وما من شك فى أن تعاريف التصوف الكثيرة التى نجدها منثورة هنا وهناك، والتى تكاد تبلغ الألف إنما تعبر فى أغلب الأحايين عن زاوية من زوايا التصوف، تتصل بالوسيلة، أو تتصل بالغاية، فلا يمكن أن يقال عنها إذا ما كانت كذلك، إنها خطأ تام، ولكن الخطأ إنما هو فى أخذها، على أنها تعبر عن الحقيقة الكاملة، أما ما يعبر عن الحقيقة الكاملة، فإنما هو تعريف « الكتانى » التصوف (صفاء ومشاهدة) » إنتهى.

وقد إنتهى إلى ذلك أيضاً السهروردى فى كتابه عوارف المعارف فى نهاية الفصل المعنون: « ماهية التصوف » حيث يقول: « وأقوال المشايخ فى ماهية التصوف تزيد على ألف، ويطول نقلها.

ونذكر ضابطاً يجمع جُلّ معانيها فإن الألفاظ - وإن إختلفت - متقاربة المعانى، **فنقول:**

الصوفى: هو الذى يكون دائم التصفية، لا يزال يصفى الأوقات، عن شوب الأكدار، بتصفية القلب عن شوب النفس.

ويعينه على هذه التصفية، دوام إفتقاره إلى مولاه، فبدوام الإفتقار ينقى من الكدر، وكلما تحركت النفس، وظهرت بصفة من صفاتها أدركها ببصيرته الناقدة وفر منها إلى ربه، فبدوام تصفيته جمعيته، وبحركة نفسه تفرقته وكدره، فهو قائم بربه على قلبه، وقائم بقلبه على نفسه، قال الله تعالى: « كونوا قوامين لله شهداء بالقسط » وهذه القوامية لله على النفس هى التحقق بالتصوف.

قال بعضهم: « التصوف كل إضطراب، فإذا وقع السكون فلا تصوف »، والسر فيه : أن الروح مجذوبة إلى الحضرة الإلهية، يعنى أن روح الصوفى

منطقة منجذبة إلى مواطن القرب، وللنفس بوضعها رسوب إلى عالمها وإنقلاب على عقبها.

ولا بد للصوفى من دوام الحركة، بدوام الإفتقار، ودوام الفرار وحسن التفقد لمواقع إصابات النفس.

ومن وقف على هذا المعنى يجد فى معنى الصوفى جمع المتفرق فى الإشارات » أ، وهكذا نجد أن تجارب الصالحين، منذ عصور متطاولة، دلت على أن تزكية النفس وتطهيرها، والإلتجاء إلى الله، والتقرب إليه، كل ذلك يسمو بالإنسان إلى عالم من الروحانية تستشرف فيه النفس إلى الملأ الأعلى، فتفيض عليها منه نفحات وإلهامات، ومعرفة لا تتأتى لذوى النفوس المادية، الذين شغلوا بالدنيا عن الدين، وبالمادة عن الله.

وبهذه السعادة يقرب العبد من الله تعالى، قرباً بالمعنى والحقيقة والصفة، لا بالمكان والمسافة، ومراقى هذه الدرجات هى منازل السائرين إلى الله تعالى، ولا حصر لتلك المنازل، وإنما يعرف كل سالك منزله الذى بلغه وسلوكه ، فيعرفه ويعرف ما خلفه من المنازل . فأما ما بين يديه ، فلا يحيط بحقيقته علماً .

وكما لا يعرف الجنين حال الطفل ، ولا الطفل حال المميز ، وما يفتح له من العلوم الضرورية ، ولا المميز حال العاقل وما اكتسبه من العلوم النظرية، فكذلك لا يعرف العاقل ما أفتتح الله على أوليائه من مزايا لطفه ورحمته : **«ما يفتح الله للناس من رحمة ، فلا ممسك لها»** وهذه الرحمة مبذولة بحكم الجود والكرم ، من الله سبحانه وتعالى غير مضنون بها على أحد ، ولكن إنما تظهر فى القلوب المتعرضة لنفحات رحمة الله تعالى كما قال صلى الله عليه وسلم :

«إن لربكم فى أيام دهركم لنفحات ، ألا فتعرضوا لها» .

والتعرض لها بتطهير القلب ، وتزكيته من الخبث والكدوره ، الحاصلة من الأخلاق المذمومة ، فقد أوحى الله إلى سيدنا موسى : «إنى خلقت فى جوف عبدى بيتا وسميته قلبا ، وجعلت أرضه المعرفة ، وسماؤه الإيمان، وشمسه الشوق، وعمده المحبة، وترابه الهمة، ورعده الخوف، وبرقه الرجاء، وغمامه الفضل، ومطره الرحمة، وشجره الوفاء، وثمره الحكمة، ونوره الفراسة، وليله المعصية، وله باب من العلم، وباب من الحلم، وباب من اليقين، وله ركن من الأنس، وركن من التوكل، وركن من الصدق، وركن من الورع، وعليه قفل من الفكر، ولا يطلع على ذلك البيت غيرى».

وقال سيدنا داود: يارب إن لكل ملك خزانة ، فما خزانتك؟

فأوحى الله إليه «ياداود، إن لى خزانة أعظم من العرش، وأوسع من الكرسى، وأطيب من الجنة، وأنور من الشمس، ذلك هو قلب عبدى المؤمن»

فمن انكشف له شىء، ولو الشىء اليسير، بطريق الإلهام والوقوع فى القلب، من حيث لا يدرى، فقد صار عارفا بصحة الطريق.

وأمثال هؤلاء الأصفياء هم الذين يقول عنهم التسترى رضى الله عنه فيما رواه عنه أبو نعيم الأصفهانى فى حلية الأولياء جـ١٠ صـ١٩٣ ، ١٩٤:

«قال الله لآدم: ياآدم إنى أنا الله لا إله إلا أنا، فمن رجا غير فضلى، وخاف غير عدلى لم يعرفنى، ياآدم إن لى صفوة وضنائن وخيرة من عبادى أسكنتهم صلبك، بعينى من بين خلقى، أعزهم بعزى، وأقربهم من وصلى، وأمنحهم كرامتى، وأبيح لهم فضلى، وأجعل قلوبهم خزائن كتبى، وأسترهم برحمتى، وأجعلهم أمانا بين ظهرانى عبادى، فبهم أمطر السماء، وبهم أنبت الأرض، وبهم أصرف البلاء.

هم أوليائى وأحبائى، درجاتهم عالية، ومقاماتهم رفيعة، وهممهم بى متعلقة.

صحت عزائمهم، ودامت فى ملكوت غيبى فكرتهم، فارتهنت قلوبهم بذكرى، فسقيتهم بكأس الأنس صرف محبتى، فطال شوقهم إلى لقائى، وإنى إليهم أشد شوقا. ياآدم من طلبنى من خلقى وجدنى، ومن طلب غيرى لم يجدنى، فطوبى ياآدم لهم ثم طوبى، ثم طوبى لهم وحسن مآب.

ياآدم هم الذين إذا نظرت إليهم هان على غفران ذنوب المذنبين لكرامتهم علىّ» وقال أيضاً : «إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام» :

ياداود، إذا رأيت لى طالباً، فكن له خادما، فكان داود يقول فى مزاميره: «واهالهم، ياليتنى عاينتهم، ياليت خدّى موطأ نعلهم».

قال سهل ذلك، ثم اصفر لونه وجعل يقول : «جعل الله نبيه وخليفته خادماً لمن طلبه لو عقلت - وما أظنك تعقل - قدر أولياء الله وطلابه، ولو عرفت قدرهم لا ستغنمت قربهم ومجالستهم وبرهم وخدمتهم وتعاهدهم».

وقد تحدثنا بين ثنايا هذا الكتاب عن كيفية تحقيق الصفاء، وعلامات الأصفياء، ووضحنا الفارق بينهم وبين الأدعياء، وضربنا لذلك الأمثلة من سير الصالحين، وأحوال العارفين حتى يظهر الحق، لطالب الله عز وجل بصدق، فلا يزل ولا يضل، ولا يشك ولا يرتاب، ونوّهنا إلى الآداب التى يجب على المريد أن يتحلى بها فى صحبة العارفين، ليرد مواردهم، ويُفاض عليه من مواهبهم، ويتجمل بحللهم ، وتظهر عليه أنوار أحوالهم.

«ربنا آتنا من لدنك رحمة، وهيىء لنا من أمرنا رشدا»

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الراجى فضل الله عز وجل

فوزى محمد أبو زيد
الجميزة - غربيه
ت : ٤٨٠٥١٩

الأربعاء ١٩ من جمادى الأولى ١٤١٧هـ
الموافق ٢ من أكتوبر ١٩٩٦م

الفصل الأول

الصوفية والشريعة الإسلامية

- الصوفية والتحلل من الشريعة الإسلامية
- اقتداء الصوفية بأحوال الصحابة الكرام
- المعرفة الذوقية الصوفية
- طريق البصيرة
- دعوى وحدة الوجود
- إتهام الصوفية بالحلول والإتحاد
- ابن تيمية ومقام الفناء

يشكك بعض الناس فى إلتزام الصوفية بأحكام الشريعة المطهرة، بل وربما يتهمونهم بالتحلل من الشريعة، ويستندون فى ذلك إلى ما يحدث من بعض الأدعياء المحسوبين على الصوفية، وليسوا منهم فى قليل أو كثير.

بينما لو نظرنا فى هذا الأمر نظرة موضوعية، لوجدنا أن الصوفية – على وجه العموم – نبهوا فى صور حاسمة إلى وجوب إلتزام الشريعة. فهذا الإمام أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه يقول: « من دعا إلى الله تعالى، بغير ما دعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو بدعى »، ويقول أيضاً: « إذا لم يواظب الفقير على حضور الصلوات الخمس فى الجماعة، فلا تعبأ به » ومن أجمل كلماته فى هذا، قوله:

« ما ثم كرامة أعظم من كرامة الإيمان، ومتابعة السنة، فمن أعطيهما، وجعل يشتاق إلى غيرهما، فهو عبد مفتر كذاب، أو ذو خطأ فى العلم والعمل بالصواب، كمن أكرم بشهود الملك على نعت الرضا، فجعل يشتاق إلى سياسة الدواب وخلع الرضا ».

وكل الصوفية ينهجون هذا النهج، ومن هؤلاء مثلاً: أبو يزيد البسطامى الذى يقول فى قوة حاسمة، وفى نطق صادق. « لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات، حتى يرتقى فى الهواء، فلا تغتروا به، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى، وحفظ الحدود، وأداء الشريعة ».

وقال لأحد جلسائه: « قم بنا ننظر إلى هذا الرجل الذى قد شهر نفسه بالولاية – وكان رجلاً مشهوراً بالزهد – فمضينا إليه، فلما خرج من بيته ودخل المسجد، رمى ببصاقة تجاه القبلة، فإنصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه، وقال: « هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يكون مأموناً على ما يدعيه ؟ »

ويقول سهل التسترى معبراً عن أصول التصوف: « أصول طريقنا سبعة: « التمسك بالكتاب، والإقتداء بالسنة، وأكل الحلال، وكف الأذى، وتجنب المعاصى، ولزوم التوبة، وأداء الحقوق ».

ولقد تحدث الإمام الجنيد - سيد هذه الطائفة وإمامهم على حد تعبير القشيرى - أكثر من مرة، فيما يتعلق بالصلة بين التصوف والشريعة، ومما قاله فى ذلك:

« الطرق كلها مسدودة على الخلق، إلا على من إقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم، وإتبع سنته، ولزم طريقته » وقال أيضاً:

« من لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث، لا يقتدى به فى هذا الأمر، لأن علمنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة »، وقال: « علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ».

وذكر رجل المعرفة أمام الجنيد وقال: « أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله عز وجل »، فقال الجنيد: « إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال، وهو عندى عظيمة، والذى يسرق ويزنى أحسن حالاً من الذى يقول هذا ».

ولقد كان الإمام الغزالى فى سلوكه، وفى قوله، وفى حياته الخاصة والعامة يلتزم الشريعة، ويقول فى شئ من التفصيل، فيه دقة، وفيه إستدلال غاية فى القوة: « وأعلم أن سالك سبيل الله تعالى قليل، والمدعى فيه كثير، ونحن نعرفك علامة له: وذلك أن تكون جميع أفعاله الإختيارية موزونة بميزان الشرع، موقوفة على توقيفاته إيراداً وإصداراً، وإقداماً، وإحجاماً، إذ لا يمكن سلوك هذا السبيل إلا بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها، ولا يصل فيه إلا من واظب على جملة من النوافل، فكيف يصل إليه من ترك الفرائض ؟

فإن قلت: فهل تنتهى رتبة السالك إلى الحد الذى ينحط عنه فيه بعض وظائف العبادات، ولا يضره بعض المحظورات، كما نقل عن بعض المشايخ من التساهل فى هذه الأمور؟، وأقول لك : « إعلم أن هذا عين الغرور، وأن المحققين قالوا : « لو رأيت إنساناً يطير فى الهواء، ويمشى على الماء، وهو يتعاطى أمراً يخالف الشرع، فإعلم أنه شيطان »، وهو الحق.

فإذا ما إنتهينا أخيراً إلى سيدى أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه، فإننا نجده يقول: « إذا تعارض كشفك مع الكتاب والسنة، فتمسك بالكتاب والسنة، ودع الكشف، وقل لنفسك إن الله تعالى ضمن لى العصمة فى الكتاب والسنة، ولم يضمنها فى جانب الكشف، ولا الإلهام ولا المشاهدة، إلا بعد عرضها على الكتاب والسنة ».

والواقع أن المثل الأعلى للصوفية على بكرة أبيهم، إنما هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم يحاولون - بإستمرار - أن ينهجوا نهجه، وأن يسيروا على منواله، فهو إمامهم الأسمى فى كل ما يأتون، وما يدعون، وهم يتابعونه مهتدين فى ذلك بقول الله سبحانه وتعالى: **« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة، لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، وذكر الله كثيراً »**

الصوفية والتحلل من الشريعة الإسلامية

من المدهش أن نجد بعض من يزعمون الإنتساب إلى التصوف يقللون من ضرورة التمسك بالشريعة، أو يهملون العمل بها، وهؤلاء خالفوا كتاب الله تعالى، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، لأنهم تركوا العلم والآداب، وجانبوا الصواب، وفيهم يقول القائل: « رضواً من التواضع بترقيع الملبوس، ومن التصوف بتزيين الرؤوس، وإقتصروا فى العبادة، على مشى النقباء أمامهم

وحمل السجادة، وفى الزهد والجلادة، على تخشين الفراش والوسادة ».

ولقد أجاد من وصفهم بقوله:

أما الخيام فإنها كخيامــهم   وأرى نساء الحى غير نسائها

فالخير كله فى الإتباع، والشر كله فى الإبتداع، ويقول فى ذلك الصوفى الفرنسى الشيخ عبد الواحد يحيى: « وقد يكون من المحتمل أن نرى أحد ممثلى الشريعة يجهل التصوف، وإن كان جهله لا يبرر إنكاره، ولكن ليس من المحتمل وليس من الطبيعى أن يجهل رجل التصوف ميدان الشريعة، ولو من جانبها العملى ذلك أن الأكثر، وهو التصوف، يتضمن بالضرورة الأقل وهو الشريعة.

على أن نظرة من يريد أن يسلك السلوك الصوفى، إلى الشريعة، من حيث عدم أهميتها، وعلى الخصوص، أهمية الجانب العملى منها بالنسبة له، هذه النظرة تتضمن ، ولو نظريا، تقليل أهمية الجانب العملى فى التصوف نفسه، وفى هذا الخطورة كل الخطورة، فإنه من المشكوك فيه كثيراً، أن يتوفر للشخص الذى عنده هذه الفكرة، الإستعداد الصوفى، ومن الخير له أن يلتزم الشريعة إلتزاماً كلياً قبل أن يبدأ السلوك، فإذا لم يمكنه إلتزامها، فلا خير فيه، بالنسبة للجانب الصوفى.

إن تقليل الشريعة إنما هو مظهر من مظاهر الروح التى لا تبالى بما أنزل الله، وعادة تكون الروح الخاضعة لما أنزل الله، هو أول خطوة فى طريق السالكين ».

إن الشريعة والحقيقة متصلتان إتصالاً يجعل منهما مظهرين لشئ واحد، أحدهما خارجى، والآخر داخلى، أو أحدهما ظاهر والأخر باطن. ولتوضيح

ذلك نقول:

إن الإنسان الذى يشيد قصراً فى الهواء، لا يشيده على أساس، وكل فكرة لا ترتكز على أساس من السنة الصحيحة: إنما هى بناء فى الهواء، إنها بناء على غير أساس.

والبناء الذى يمكن أن يبقى على الدهر لابد له من أساس مدعم، وعلى الأساس يرتكز البناء كله، حتى الأجزاء العليا منه، والإرتكاز على الأساس يستمر حتى بعد إنتهاء البناء.

وعلى هذا النمط تكون النسبة بين الشريعة والتصوف، فالشريعة الصحيحة هى الأساس الذى لابد منه لكل سالك، وكالأساس تماماً، لا يمكن طرح الشريعة بعد سلوك الطريق.

بل نقول أكثر من ذلك: إنه كلما سار الصوفى فى طريقه وإستغرق فيه، بدت له ضرورة الشريعة، وإستنارت معرفته بها، وأصبح فهمه لها أكثر عمقاً، وأكثر دراية بحقيقتها من هؤلاء الذين درسوها وآمنوا بها، دون أن يضربوا بسهم فى الميدان الصوفى، ذلك أنهم لا يرون من الشريعة إلا مظهرها الخارجى، ولكن الصوفى يعيش فى جوها الروحى، ويحياها، إذا أمكن هذا التعبير.

وإذا كان لا يُقبل من رجل الدين أن يعلن تدينه، دون أن يجعل للشريعة السيطرة على قياده، فإنه لا يُقبل من باب أولى من رجل صوفى أن يزعم إنتسابه إلى الصوفية دون أن تسيطر شعائر الدين وإلتزاماته على حياته.

إننا نرى ضرورة إلتزام الشريعة لكل إنسان، ولكننا نؤكد – ونحن على يقين من الأمر – لهؤلاء الذين يريدون أن يسلكوا الطريق الصوفى، بأنهم لن

يصلوا حتى إلى أولى مراحل الطريق إذا لم يلتزموا بالشريعة إلتزاماً تاماً.

وقد سئل الإمام الغزالى رضى الله عنه عن معنى إرتفاع التكليف عن الولى فأجاب كما ذكر السبكى فى طبقات الشافعية بقوله: « معنى إرتفاع التكليف عن الولى، أن العبادة تصير قرة عينه، وغذاء روحه، بحيث لا يصبر عنها، ولا يكون عليه كلفة فيها.

وهو كالصبى يكلف حضور المكتب، ويُحمل على ذلك قهراً، فإذا إكتمل بالعلم، صار ذلك ألذ الأشياء عنده، ولم يصبر عنه، فلم يكن فيه كلفة.

وتكليف الجائع ليتناول الطعام اللذيذ، محال: لأنه يأكله بشهوة ويلتذ به، فأى معنى لتكليفه؟ فإذن تكليف الولى محال، والتكليف مرتفع عن الولى بهذا المعنى، لا بمعنى أنه لا يصوم، ولا يصلى، ويشرب، ويزنى.

وكما يستحيل تكليف العاشق النظر إلى معشوقه، وتقبيل قدميه، والتواضع له، لأن ذلك منتهى شهوته ولذته، فكذلك غذاء روح الولى، فى ملازمة ذكره، وإمتثال أمره، والتواضع له بقلبه، لا يمكنه اشراك القالب مع القلب فى الخضوع، إلا بصورة السجود فيكون ذلك كمالاً للذة الخضوع والتعظيم، حتى يشترك فى الإلتذاذ قلبه وقالبه كما قيل:

ألا فإسقنى خمراً	وقل لى هى الخمر
أى ليدرك سمعى لذة إسمه	كما أدرك ذوقى طعمه

بل تنتهى لذة الولى من القيام لربه قانتاً مناجياً، إلى أن لا يدرك الورم فى القدم، فيقال له: ألم يغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فيقول: أفلا أكون عبداً شكوراً؟ »ا.م.

وكذا كتب له بعض الزائغين: ما قوله، متع الله المسلمين ببقائه، ومتع

الطالبين بمشاهدته، ولقائه، ومنحه أفضل ما منح أفضل خاصته من أصفيائه وأوليائه، فى قلب خصه الحق بأنواع من الطرف والهدايا ومنحه أصنافاً من الأنوار والعطايا، يستمر له ذلك فى جميع الأوقات والأحوال، متزايدة مع عدم العوائق والآفات.

مع كون ظاهره معموراً، بأحكام الشرع وأدائه، منزهاً عن مآثمه ومخالفاته، ويجد فى الباطن مكاشفات وأنواراً عجيبة.

ثم إنه إنكشف له نوع يعرفه، أن المقصود من التكاليف الشرعية، والرياضات الدينية:هو الفطام عما سوى الحق، كما قيل لموسى صلى الله عليه وسلم:

« إخل قلبك : أريد أن أنزل فيه »، فإذا تم الفطام، وحصل المقصود بالوصول إلى القربة، ودوام الترقى من غير فترة، حتى إنه لو إشتغل بوظائف الشرع وظواهره، إنقطع عن حفظ الباطن، وتشوش عليه بالإلتفات عن أنواع الواردات الباطنية، إلى مراعاة أمر الظاهر.

وهذا الرجل لا ينزل يده من التكليف الظاهر، ولا يقصر فى أحكام الشريعة، ولكن الإعتقاد الذى كان له فى الظواهر والتكاليف، تناقص وتقاصر عما كان فى الإبتداء من التعظيم لوقعها عنده، ولكنه يباشرها ويواظب عليها عادة، لا لأجل الخلق، وحفظ نظرهم، ومراقبة الله، بل صارت إلفاً له، وإن نقص إعتقاده فيها، فهو يعظمها. ما حكمها؟

الجواب: وبالله التوفيق: ينبغى أن يتحقق هنا أن من ظن أن المقصود من التكاليف والتعبد بالفرائض: الفطام عما سوى الله، والتجرد له، فهو مصيب فى ظنه أن ذلك مقصود، ومخطئ فى ظنه أنه كل المقصود، ولا مقصود سواه.

بل لله تعالى فى الفرائض التى إستعبد بها الخلق أسرار سوى الفطام، تقتصر بضاعة العقل عن دركها.

ومثل هذا الرجل المنخدع بهذا الظن، مثل رجل بنى له أبوه قصراً على رأس جبل، ووضع فيه شجرة من حشيش طيب الرائحة، وأكد الوصية على ولده مرة بعد أخرى، ألا يخلى هذا القصر عن هذا الحشيش طول عمره.

وقال: إياك أن تسكن هذا القصر ساعة من ليل أو نهار إلا وهذا الحشيش فيه، فزرع الولد حول القصر أنواعاً من الرياحين، وطلب فى البر والبحر أوتاداً من العود والعنبر والمسك، وجمع فى قصره جميع ذلك من شجرات كثيرة من الرياحين الطيبة الرائحة.

فإنغمرت رائحة الحشيش لما فاحت هذه الروائح.

فقال: لا شك أن والدى ما أوصانى بحفظ هذا الحشيش إلا لطيب رائحته، والآن قد إستغنينا بهذه الرياحين عن رائحته، فلا فائدة فيه الآن، إلا أن يضيق على المكان، فرماه من القصر.

فلما خلا القصر من الحشيش، ظهر من بعض نقب القصر حية هائلة، وضربته ضربة هائلة أشرف بها على الهلاك، فتنبه حيث لم ينفعه التنبه، إلى أن الحشيش كان من خاصيته دفع هذه الحية المهلكة، وكان لأبيه بالوصية بالحشيش غرضان:

أحدهما: إنتفاع الولد برائحته، وذلك قد أدركه الولد بعقله، والثانى: إندفاع الحيات المهلكات برائحته، وذلك مما قصر عن دركه بصيرة الولد، فإغتر الولد بما عنده من العلم، وظن أنه لا سر وراء معلومه ومعقوله كما قال تعالى: « **ذلك مبلغهم من العلم** » وقال: « **فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا**

بما عندهم من العلم » والمغرور من إغتر بعقله فظن أن ما هو منتف عن علمه، فهو منتف فى نفسه.

ولقد عرف أهل الكمال أن قلب الآدمى : كذلك القصر، وأنه معشش حيات وعقارب مهلكات، وإنما رقيتها وقيدها بطريق خاصة: المكتوبات والمشروعات، بقوله سبحانه:

« **إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً** » وقوله تعالى: « **كتب عليكم الصيام** » فكما أن الكلمات الملفوظة والمكتوبة فى الرقية تؤثر بالخاصة فى إستخراج الحيات، بل فى إستسخار الجن والشياطين.

وبعض الأدعية المنظومة المأثورة تؤثر فى إستمالة الملائكة إلى السعى فى إجابة الداعى ويقصر العقل عن إدراك كيفيته وخاصيته، وإنما يدرك ذلك بقوة النبوة إذا كوشف السر بها من اللوح المحفوظ.

فكذلك صورة الصلاة المشتملة على ركوع واحد، وسجودين، وعدد مخصوص، وألفاظ معينة من القرآن، متلوة مختلفة المقادير: عند طلوع الشمس وعند الزوال، والغروب، تؤثر بالخاصة فى تسكين التنين المستكن فى قلب الآدمى الذى يتشعب منه حيات كبيرة الرءوس بعدد أخلاق الآدمى، يلدغه وينهشه فى القبر، متمكنا من جوهر الروح وذاته، أشد إيلاماً من لدغ مُكن من القالب أولاً، ثم يسرى أثره إلى الروح، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : « **يسلط الله على الكافر فى قبره تنيناً، له تسعة وتسعون رأساً صفته كذا وكذا ...** » الحديث.

ويكثر مثل هذا التنين فى خلق الآدمى، ولا يقمعه إلا الفرائض المكتوبة، فهى المنجية من المهلكات، وهى أنواع كثيرة بعدد الأخلاق المذمومة « **وما يعلم جنود ربك إلا هو** » فإذن فى التكليف غرضان: أدرك هذا المغرور

أحدهما، وغفل عن الآخر. وقد وقع لأبي حنيفة مثل هذا الظن في الفقهيات، فقال: « أوجب الله في أربعين شاه، شاه، وقصد به إزالة الفقر، والشاه آلة في الإزالة، فإذا حصل بمال آخر فقد حصل تمام المقصود » فقال الشافعي رضى الله عنه: « صدقت في قولك: إن هذا مقصود، وركبت مَن الخطر في حكمك بأنه لا مقصود سواه، فبم تأمره: إذ يقال له يوم القيامة: كان لنا سرّ في إشراك الغني الفقير، مع نفسه في جنس ماله؟ كما كان من يرمى سبعة أحجار في الحج يؤدى بدلها خمس لآل، أو خمس أكبر إذ لم يقبله.

وإذا جاز أن يتمحض التقييد في الحج، وأن يتمحض المعنى المعقول معاملات الخلق، فلم يستحل أن يجمع المعقول والتقييد جميعاً في الزكاة، فتكون إزالة الفقر معقولة، والسر الآخر غير معقول » .

ثم يستطرد رضى الله عنه فيقول: « وننبه على هذه المعرفة بالتأمل في ثلاثة أمور: الأول: بداية حال إبليس، وأنه كيف وصف بأنه كان معلم الملائكة، ثم سقط عن درجة الكمال بمخالفة أمر واحد: إغتراراً بما عنده من العلم، وغفلة عن أسرار الله في الإستبعاد، ولم يسقط عن درجته إلا بكياسته وفطنته، وتمسكه بمعقوله، في كونه خيراً من آدم عليه السلام.

فننبه الخلق بهذا الرمز على أن البلاهة أدنى إلى الخلاص من فطانة بتراء وكياسة ناقصة.

الثاني: حال آدم عليه السلام، وأنه لم يخرج من الجنة إلا بركوبه نهياً واحداً ليعلم أن في ركوب النهى إبطال إعتقاد الكمال لخالقه.

الأمر الثالث: حال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن هذا المغرور لعله يقول: إنه لم تسلم له رتبة الكمال، ثم إنه صلى الله عليه وسلم لم يزل يلازم الحدود، ويواظب على المكتوبات إلى آخر أنفاسه، بل يزيد في فرائضه،

وأوجب عليه التهجد، ولم يوجبه على غيره، وقيل له: « **ياأيها المزمل قم الليل إلا قليلاً، نصفه أو إنقص منه قليلاً** »، وإنما أوجبت عليه هذه الزيادة، لأن الخزانة كلما إزداد جوهرها نفاسة وشرفاً ينبغى أن يزداد حصنها إحكاماً وعلواً، فلذلك قيل فى تعليل إيجاب التهجد:

« **إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً، إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلاً** »

فتبين له أن هذه الصلوات هى حصن الكمال، فلا يبقى إلا به.

ولعل المغرور المعتوه يقول: إنه كان يواظب عليها إشفاقاً على الخلق لأجل الإقتداء، لا لحاجته إليها فى حفظ الكمال.

فيقال له: فلم زاد عليه فى التهجد وجوباً؟

مسألة: أمّا ما ذكره من أنه لو إشتغل بالتكاليف لشغله ذلك عن القربة التى نالها، والكمال الذى بلغه فهو كذب صريح، ومحال فاحش قبيح، لأن التكاليف قسمان: أمر ونهى فأما المنهيات: مثل الزنا، والسرقة، والقتل، والضرب، والنميمة، والكذب، والقذف.

فترك ذلك كيف يشغل عن الكمال؟ وكيف يحجب عن القربة؟ والكمال كيف يكون موقوفاً على ركوب هذه القاذورات؟

وأما المأمورات: فالزكاة والصوم والصلاة.

فكيف تحجبه الزكاة ولو أنفق جميع ماله، فقد دفع السوء عن نفسه؟، ولو صام جميع دهره، فهل يفوته بذلك إلا سلطنة الشهوة؟ فما الذى يفوت من الكمال بترك الأكل ضحوة النهار، فى شهر واحد هو رمضان، وأما الصلاة فتقسم إلى:

أفعال وأذكار: وأفعالها: قيام وركوع وسجود.

ولا شك فى أنه لا يخرج من القربة بالأفعال المعتادة، فإن لم يصل، فيكون إما قائماً أو مضطجعاً، وغير المعتاد هو السجود والركوع، وكيف يحجب عن القربة، ما هو سبب القربة؟ قال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم: **« وأسجد وإقترب »**.

ومن عشق ملكاً ذا جمال، فإذا وضع وجهه على التراب بين يديه، إستكانه له، وجد فى قلبه مزيج روح، وراحة، وقرب.

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: **« جعلت قرة عينى فى الصلاة »**.

فإستدامة حال القربة وإستزادتها فى السجود، أيسر منه فى الإضطجاع والقعود ومهما ألقى فى قلبه أن السجود سبب حرمانه عن القرب كان ذلك أنموذجا من حال إبليس، حيث ألقى فى نفسه أن السجود بحكم الأمر، سبب زوال قربته وكماله.

فكل ولى سقط من درجة القربة، إلى درجة اللعنة، فسببه ترك السجود، ومقتداه وإمامه إبليس، وكل ولى أسعد بالترقى إلى درجات القرب قيل له: **« وإسجد وإقترب »**، ومقتداه وإمامه الرسول صلى الله عليه وسلم.

ولا ينبغى أن يتوهم الولى الخالص أنه بعيد عن خداع إبليس، مادام فى هذه الحياة، بل لا ينجو عنه الأنبياء، غير أنهم محفوظون كما قال تعالى: **« وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته، فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته، والله عليم حكيم »** أ.هـ

ونختم كلامنا فى هذا الموضوع بهذا الكلام المحقق للدكتور حسن الشرقاوى فى تعليقه على كتاب الكوكب الشاهق للشعرانى: « إن إتهام الصوفية بأنهم يرفعون التكاليف والفرائض الشرعية، قول مردود، ودعوى

كاذبة، فالصوفية يؤمنون إيماناً راسخاً بأنه لا شريعة بلا حقيقة، ولا حقيقة بلا شريعة، فمن تشرع ولم يتحقق فقد تفسق، ومن تحقق ولم يتشرع فقد تزندق، فأعمال القلوب يجب أن ترتبط بأعمال الجوارح، فلا تباين بينها، ولا تناقض ولا إنفصال، ولكل عضو من أعضاء الجسم وظيفته التى يجب أن يؤديها فى معاملاته، وعباداته، وتكاليفه الشرعية، كما أن عقل الإنسان ونفسه وقلبه جميعاً يجب أن تتكامل مع جوارحه بالتقرب إلى الله تعالى، فإذا ما إنفصلت أعمال الجوارح عن أعمال القلوب، فسدت النفس والبدن جميعاً.

فكيف يمكن أن يقال بعد ذلك أن الصوفية قوم خمول وتبطل وتكاسل، وأنهم يدعون إلى رفع التكاليف الشرعية، وهم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه الكريم، ويبدو للمتأمل السليم القلب أن هناك إختلافاً بيناً، بين أهل الحق الذين يتبعون شريعة الله وسنة رسوله، وبين المبتدعة الذين يخالفون قول الله وسنة رسوله، فيبتدعون أعمالاً وأفعالاً من عند أنفسهم، ويؤولون كلام الله، فيحرمون أشياء، ويبيحون أشياء، بحسب أهوائهم.

وهؤلاء ليسوا من الصوفية، إنما هم دخلاء على أهل الله، وهم من مرضى القلوب، يزعمون أنهم من الصوفية، وهم إلى الكفر أقرب منهم إلى الإيمان ».

إقتداء الصوفية بأحوال الصحابة الكرام

وقد يدعى البعض بأن الصحابة رضى الله عنهم لم يكن لهم مثل هذه المجاهدات التى يقوم بها رجال الصوفية، وكذلك لم يذكر أمثال هذه الكرامات التى يتناقلها رجال الصوفية عن شيوخهم والحقيقة أن الصوفية

لهم غايات سامية، وهى غايات روحية مثل: رضاء الملأ الأعلى، حب الله، الإتصال به، الفناء فيه ليصبح عارفاً به سبحانه، وهذه الأغراض تحتاج إلى مجاهدة النفس والأهواء والشهوات، ليصل المرء إليها، ولا يتأتى له ذلك إلا عن طريق الوحى المعصوم، فلابد إذن من إتباع تعاليم الرسول إتباعاً سليماً، وبالتالى فإنه لا يتأتى أن يوجد تصوف قط، مالم يكن إتباع كامل لشريعة صادقة، وإن التصوف الإسلامى لم يوجد إلا بإقتداء الصوفية إقتداء تاماً برسول الله صلى الله عليه وسلم، لقد أحبوه وإتبعوه وحققوا بذلك قول الله تعالى: **« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ».**

ولا يستطيع الصوفية تحقيق هذه المتابعة، إلا إذا قاسوا أحوالهم بأحوال الصحابة الكرام، لأن الصحابة رضى الله عنهم أصدق الناس قاطبة فى متابعته صلى الله عليه وسلم وقد أثنى الله عز وجل عليهم بذلك فقال: **« من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلاً »**، وفى ذلك، يقول إبن خلدون فى مقدمته: « وقد كان الصحابة رضى الله عنهم على مثل هذه المجاهدة، وكان حظهم من هذه الكرامات أوفر الحظوظ، لكنهم لم يقع لهم بها عناية.

وفى فضائل أبى بكر، وعمر، وعثمان، وعلى، رضى الله عنهم كثير منها، وتبعهم فى ذلك أهل الطريقة، ممن إشتملت رسالة القشيرى على ذكرهم، ومن تبع طريقتهم من بعدهم »

أما ما أيدهم الله عز وجل به من أنواع الكرامات، فشئ كثير جداً، نكتفى بذكر نماذج منها، لأن جمع كل ما ورد فيها من الأخبار والآثار يخرج عن الحصر.

فقد قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه لعائشة رضى الله عنها، عند

موته، إنما هما أخواك، وأختاك، وكانت زوجته حاملاً، فولدت بنتاً، فكان قد عرف الولادة أنها بنت.

وقال عمر رضى الله عنه فى أثناء خطبته: يا سارية الجبل، إذ إنكشف له أن العدو قد أشرف عليه، فحذره لمعرفته ذلك، ثم بلوغ صوته إليه من جملة الكرامات العظيمة.

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: دخلت على عثمان رضى الله عنه وكنت قد لقيت إمرأة فى طريقى، فنظرت إليها شزراً، وتأملت محاسنها - فقال عثمان رضى الله عنه، لما دخلت: يدخل علىّ أحدكم، وأثر الزنى ظاهر على عينيه!! أما علمت أن زنى العينين النظر؟ لتتوبن أو لأعزرنك، فقلت: أوحى بعد النبى؟ فقال لا، ولكن بصيرة وبرهان، وفراسة صادقة.

وعلى هذا المنوال سار الصوفية الصادقون، فحصلوا ذلك الاكرام، ونالوا تلكم العطايا.

فعن أبى سعيد الخراز قال: دخلت المسجد الحرام، فرأيت فقيراً عليه خرقتان، فقلت فى نفسى: هذا وأشباهه كَلٌّ على الناس، فنادانى وقال: « **والله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه** » فإستغفرت الله فى سرى، فنادانى وقال:

« **وهو الذى يقبل التوبة عن عباده** » ثم غاب عنى ولم أره.

وقال زكريا بن داود: دخل أبو العباس بن مسروق على أبى الفضل الهاشمى، وهو عليل، وكان ذا عيال، ولم يعرف له سبب يعيش به ، قال: فلما قلت فى نفسى : من أين يأكل هذا الرجل؟ قال فصاح بى، يا أبا العباس، رد هذه الهمة الدَّنِية، فإن لله تعالى ألطافاً خفية.

وهكذا نصل إلى هذه الحقيقة التى لا مرية فيها: أن الإنسان لا يتأتى له أن يلج باب الله، أو يسير فى الطريق إليه، إلا بالعبودية الخالصة لله وحده لا شريك له.

فإذا ما تمخضت العبودية لله سبحانه، وأصبح الإنسان من عباد الله المخلصين، فإن الله سبحانه لا يجعل للشيطان عليه من سبيل: « **إن عبادى ليس لك عليهم سلطان، وكفى بربك وكيلاً** » [الآية (٦٥) الإسراء].

ويعترف إبليس بأنه عاجز عن أن يضل من حقق العبودية الصادقة لله سبحانه، فيقول: « **فبعزتك لأغوينهم أجمعين، إلا عبادك منهم المخلصين** » [الآيتان (٨٢، ٨٣) ص].

وإذا ما حقق الإنسان العبودية لله، فإن الله يتولاه بالإمداد بالمعرفة، والفتح والفيض والفضل الكثير، ولقد حقق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم العبودية كاملة تامة.

لقد حققها فى ذروتها، فكانت صلاته، وكانت نسكه، وكانت حياته بأكملها، وكان موته لله رب العالمين. لا شريك له: « **قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أمرت، وأنا أو ل المسلمين** » [الآيتان (١٦٢، ١٦٣) الأنعام].

لقد حققها موفورة تامة، فأتاه الله عِز الدنيا والآخرة.

وبمتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم، والإقتداء به، سعد أصحابه رضى الله عنهم، ونالوا النصر والفتح والتمكين، وكذلك سار الصوفية على الدرب، فأخذوا أنفسهم بالتأسى بالرسول صلى الله عليه وسلم فيما دقّ من الأمور، وما وضح منها، وفى اليسير من أعمالهم، والعظيم منها، فظهرت لهم عجائب الرؤيا الصادقة وإنكشفت لهم غيوب يقول فيها الإمام الغزالى رضى الله عنه

فى كتابه (المنقذ من الضلال):

« ومن أول الطريقة تبتدئ المكاشفات والمشاهدات، حتى إنهم فى يقظتهم يشاهدون الملائكة، وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتاً، ويقتبسون منهم فوائد.

ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال، إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها، إلا إشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الإحتراز عنه ».

المعرفــة الذوقيــة الصوفيــة

يرشد القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إلى نوع من المعرفة، ليس طريقه الحس، وليس طريقه العقل، ولا يستمد صراحة من الكتب المقدسة، ذلك النوع فى أبسط صورة وأعمها وأشملها هو الرؤيا.

فليست الرؤيا معرفة حسية، وليست معرفة عقلية، وليست معرفة مصدرها الكتب المقدسة، ويبين الحديث الشريف مصدرها فيقول: **« الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ».**

فقد قرب الله تعالى على خلقه بأن أعطاهم أنموذجاً من خاصية النبوة، وهو النوم، إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب، إما صريحاً، وإما فى كسوة مثال يكشف عنه التعبير، والنبوة هى الأخرى ليست معرفة حسية، وليست معرفة عقلية، إنها ليست تجربة، وليست منطقاً، ولكنها وحى من الله.

والقرآن غاص بهذا النمط من المعرفة الإلهية، إنه غاص بذكر الأنبياء والرسل الذين كلمهم الله وحياً، أو من وراء حجاب، أو بإرسال الرسل إليهم

أعنى الملائكة.

فتزكية النفس وتطهيرها، والتقرب إلى الله، يسمو بالإنسان إلى عالم من الروحانية تستشرف فيه النفس إلى الملأ الأعلى، فتفيض عليها منه نفحات وإلهامات، ومعرفة لا تتأتى لذوى النفوس المادية، الذين شغلوا بالدنيا عن الدين، وبالمادة عن الله.

وفى ذلك يقول الإمام الغزالى فى كتابه « المنقذ من الضلال »: « ثم إنى لما فرغت من هذه العلوم، أقبلت بهمتى على طريق الصوفية، وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل.

وكان حاصل عملهم قطع عقبات النفس، والتنزه عن أخلاقها المذمومة، وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى، وتحليته بذكر الله.

وكان العلم أيسر علىّ من العمل، فإبتدأت بتحصيل علمهم، من مطالعة كتبهم، مثل « قوت القلوب » لأبى طالب المكى رحمه الله، وكتب الحارث المحاسبى والمتفرقات المأثورة عن الجنيد، والشبلى، وأبى يزيد البسطامى، قدس الله أرواحهم وغير ذلك من كلام مشايخهم، حتى أطلعت على كنه مقاصدهم العلمية، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع، فظهر لى أن خواص خواصهم مالا يمكن الوصول إليه بالتعلم، بل بالذوق، والحال، وتبدل الصفات.

وكم من الفرق بين أن يعلم حد الصحة، وحد الشبع، وأسبابهما وشروطهما، وبين أن يكون صحيحاً وشبعان، وبين أن يعرف حد السكر، وأنه عبارة عن حالة تحصل من إستيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة على معادن الفكر، وبين أن يكون سكران، بل السكران لا يعرف حد السكر وعلمه وهو سكران، وما معه من علمه من شئ، والصاحى يعرف حد السكر وأركانه،

وما معه من السكر شئ.

والطبيب فى حالة المرض يعرف حداً للصحة، وأسبابها، وأدويتها، وهو فاقد الصحة، كذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطها، وأسبابها، وبين أن يكون حالك الزهد، وعزوف النفس عن الدنيا، فعلمت يقيناً أنهم أرباب الأحوال، لا أصحاب الأقوال وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته، ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم، بل بالذوق والسلوك ».

طـــريق البصيـــرة

ولكن الكثيرين يشكون فى هذا الطريق - طريق البصيرة الذى سبيله التزكى والتطهر - الموصل إلى المعرفة، ويرون أنه أسطورة من الأساطير، أو خرافة من الخرافات، ويطلبون فى إلحاح الإستدلال على أن هذا الطريق صحيح.

ويرون أن النبوة والرسالة، والعبد الصالح، كل هذه أمور خارقة للعادة، أرادها الله فكان ما أراد، ولكن ليس هناك من دليل على أن غيرهم من البشر يستطيعون أن يصلوا إلى المعرفة الإلهامية. ويقولون: ما الدليل على أن التصوف وسيلة من وسائل المعرفة؟ ونسوق لهم شواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف فى إكتساب المعرفة لا من التعلم ولا من الطريق المعتاد، ومن ذلك قوله تعالى: « **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا** » فكل حكمة تظهر من القلب، بالمواظبة على العبادة من غير تعلم، فهى بطريق الكشف والإلهام، وأيضاً قوله صلى الله عليه وسلم: « **من عمل بما علم، ورثه الله علم مالم يعلم، ووفقه فيما يعمل، حتى يستوجب الجنة، ومن لم يعمل بما**

يعلم، تاه فيما يعلم ولم يوفق فيم يعمل، حتى يستوجب النار »، وكذلك قوله تعالى: « **من يتق الله يجعل له مخرجاً** » من الإشكالات والشبه: « **ويرزقه من حيث لا يحتسب** » قيل: يعلمه علماً من غير تعلم، ويفطنه من غير تجربة.

وقال الله تعالى: « **يأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً** » قيل نوراً يفرق به بين الحق والباطل، ويخرج به من الشبهات.

وقال صلى الله عليه وسلم، لإبن عباس: « **اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل »**، وقال على رضى الله عنه: « ما عندنا شئ، أسره النبى صلى الله عليه وسلم إلينا، إلا أن يؤتى الله تعالى عبداً فهماً فى كتابه » وليس هذا بالتعلم.

وقيل فى تفسير قوله تعالى: « **يؤتى الحكمة من يشاء** » إنه الفهم فى كتاب الله تعالى، وقال تعالى: « **ففهمناها سليمان** » خص ما إنكشف بإسم الفهم.

وكان أبو الدرداء يقول: المؤمن من ينظر بنور الله، من وراء ستر رقيق، والله إنه للحق يقذفه الله فى قلوبهم، ويجريه على ألسنتهم.

وقال صلى الله عليه وسلم: « **إتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله تعالى** » وإليه يشير قوله تعالى: « **إن فى ذلك لآيات للمتوسمين** » وقوله تعالى: « **قد بينا الآيات لقوم يوقنون** »، وروى الحسن عن رسول الله صلى عليه وسلم أنه قال: « **العلم علمان، فعلم باطن فى القلب، فذلك هو العلم النافع، وعلم فى اللسان فذلك حجة الله على إبن آدم** ».

وسئل بعض العلماء عن العلم الباطن: ما هو؟ فقال: هو سر من أسرار الله تعالى، يقذفه الله تعالى فى قلوب أحبابه، لم يطلع عليه ملكاً ولا بشراً.

وقد قال صلى الله عليه وسلم: « **إن من أمتى محَدَّثين، ومعلمين، ومكلمين، وإن عمر منهم** ».

وقرأ إبن عباس، رضى الله عنهما: **« وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى»** ولا محدث: يعنى الصديقين والمحدث هو الملهم، والملهم: هو الذى إنكشف له فى باطن قلبه من جهة الداخل، لا من جهة المحسات الخارجة. والقرآن مصرح:بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف، وذلك علم من غير تعلم.

وقال الله تعالى: **« إن فى إختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون »** خصصها بهم. وقال تعالى: **« هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين »**.

وكان أبو يزيد وغيره يقول: ليس العالم الذى يحفظ من كتاب، فإذا نسى ما حفظه صار جاهلاً، وإنما العالم الذى يأخذ علمه من ربه أى وقت شاء، بلا حفظ ولا درس، وهذا هو العلم الربانى، وإليه الإشارة بقوله تعالى: **« وعلمناه من لدنا علماً »** مع أن كل علم من لدنه، ولكن بعضه بوسائط تعليم الخلق، فلا يسمى ذلك علماً لدنياً، بل اللدنى: الذى ينفتح فى سر القلب من غير سبب مألوف من خارج.

فهذه شواهد النقل ولو جمعنا كل ماورد فيه من الآيات والأخبار والآثار لخرج عن الحصر، وأما مشاهدة ذلك بالتجارب، فذلك أيضاً خارج عن الحصر، وظهر ذلك على الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وفى ذلك يقول الإمام الغزالى رضى الله عنه فى كتابه « الإحياء »: « والدليل القاطع على الكشف الذى لا يقدر على جحده أمران:

أحدهما: عجائب الرؤيا الصادقة، فإنه ينكشف بها الغيب، وإذا جاز ذلك فى النوم، فلا يستحيل أيضاً فى اليقظة. فلم يفارق النوم اليقظة إلا فى ركود الحواس، وعدم إشتغالها بالمحسات، فكم من مستيقظ غائص، لا يسمع ولا يبصر، لإنشغاله بنفسه.

الثاني: إخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيب، وأمور في المستقبل، كما إشتمل عليه القرآن .. وإذا جاز ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم جاز لغيره: إذ النبي عبارة عن شخص كوشف بحقائق الأمور، وشغل بإصلاح الخلق، فلا يستحيل أن يكون في الوجود شخص مكاشف بالحقائق، ولا يشتغل بإصلاح الخلق، وهذا لا يسمى نبياً، بل يسمى ولياً.

فمن آمن بالأنبياء! وصدق بالرؤيا الصالحة، لزمه لا محالة، أن يقر بأن القلب له بابان: باب إلى الخارج وهو الحواس، وباب إلى الملكوت من داخل القلب: وهو باب الإلهام، والنفث في الروع، والوحي.

فإذا أقر بهما جميعاً، لم يمكنه أن يحصر العلوم في التعلم، ومباشرة الأسباب المألوفة، بل يجوز أن تكون المجاهدة سبيلاً إليه ».

فإذن للقلب بابان: باب مفتوح إلى عالم الملكوت، وهو اللوح المحفوظ، وعالم الملائكة، وباب مفتوح إلى الحواس الخمس، المتمسكة بعالم الملك والشهادة، وعالم الشهادة والملك أيضاً، يحاكي عالم الملكوت نوعاً من المحاكاة، فأما إنفتاح باب القلب إلى الإقتباس من الحواس، فلا يخفى على أحد، وأما إنفتاح بابه الداخل إلى عالم الملكوت، ومطالعة اللوح المحفوظ: فتعلمه علماً يقينياً: بالتأمل في عجائب الرؤيا، وإطلاع القلب في النوم على ما سيكون في المستقبل، أو كان في الماضي، من غير إقتباس من جهة الحواس، وإنما ينفتح ذلك الباب لمن إنفرد بذكر الله تعالى.

قال صلى الله عليه وسلم: **« سبق المفردون »**

قيل: ومن هم المفردون يا رسول الله؟

قال: المتنزهون بذكر الله تعالى، وضع الذكر عنهم أوزارهم، فوردوا القيامة خفافاً » ثم قال في وصفهم إخباراً عن الله تعالى: **« ثم أقبل بوجهي**

عليهم، أترى من واجهته بوجهى يعلم أحد أى شئ أريد أن أعطيه »؟، ثم قال تعالى: « أول ما أعطيهم أن أقذف النور فى قلوبهم فيخبرون عنى كما أخبر عنهم »، ومدخل هذه الأخبار هو الباب الباطن.

فإذن الفرق بين علوم الأولياء والأنبياء، وبين علوم العلماء والحكماء هذا، وهو أن علومهم تأتى من داخل القلب، من الباب المنفتح إلى عالم الملكوت، وعلم الحكمة يأتى من أبواب الحواس، المفتوحة إلى عالم الملك.

وهذا الرأى هو ما يراه كثير من كبار المفكرين، فى كل عصر: إنه رأى الفارابى، ورأى إبن سينا، بل ورأى الشيخ محمد عبده حيث يقول فى رسالة التوحيد: « أما أرباب النفوس العالية، والعقول السامية، من العرفاء ممن لم تدن مراتبهم من مراتب الأنبياء، ولكنهم رضوا أن يكونوا لهم أولياء، وعلى شرعهم ودعوتهم أمناء، فكثير منهم نال حظه من الأنس بما يقارب تلك الحال: حال الإتصال فى النوع أو الجنس، لهم مشارفة فى بعض أحوالهم على شئ من عالم الغيب، ولهم مشاهد صحيحة فى عالم المثال لا تنكر عليهم لتحقق حقائقها فى الواقع، فهم لذلك لا يستبعدون شيئاً مما يحدث به عن الأنبياء – صلوات الله وسلامه عليهم – ومن ذاق عَرف، ومن حرم إنحرف.

ودليل صحة ما يتحدثون به وعنه: ظهور الأثر الصالح منهم، وسلامة أعمالهم مما يخالف شرائع أنبيائهم، وطهارة فطرهم مما ينكره العقل الصحيح، أو يمجه الذوق السليم، وإنتفاعهم بباعث من الحق الناطق فى سرائرهم، المتلألئ فى بصائرهم، إلى دعوة من يحف بهم إلى ما فيه خير العامة، وترويح قلوب الخاصة.

ولا يخلو العالم من متشبهين بهم، ولكن ما أسرع ما ينكشف حالهم، ويسوء مآلهم، ومآل من غرروا به، ولا يكون لهم إلا سوء الأثر فى تضليل

العـقـول، وفسـاد الأخـلاق، وإنحـطاط شـأن القـوم الذين رزئوا بـهم، إلا أن يتداركهم الله بلطفه، فتكون كلمتهم الخبيثة: « كشجرة خبيثة إجتـثت من فـوق الأرض مالـها من قرار » [رسالة التوحيد ط صبيح صـ٦١ – ٧٠]

دعوى وحدة الوجود

وحـدة الوجـود، وفكرة الإتحـاد والحلول، فكرة إلحـادية قديمة، عـريقـة فى العبادات الهندية، والديانات البوذية، وخلاصتها التى تقربها إلى العقول، أن أصحابها إنقسموا إلى فريقين:

فـريق يرى الله – سبـحانه وتـعالى عـمـا يصـفون – روحـاً، ويرى العـالم جسماً لذلك الروح، وإن الإنسـان إذا سما وتطـهر، إرتفع فـالتصق بالروح – التى هى الله – ففنى فيها، فذاق السعادة الكبرى، وظفر بالخلود الدائم.

والفريق الثانى، يرى أن جميع الموجودات لا حقيقة لوجودها غير وجود الله، فكل شئ فى زعمهم هو الله، والله هو كل شئ، يتجلى تجلياً حقيقياً فى كل شئ فـى الكون بذاته، فـلا مـوجـود إلا الوجـود الواحـد، ومع ذلك يتـعـدد بتعدد الصـور تعدداً حقيقياً واقعياً فى نفس الأمر ولكن ذلك التعدد لا يوجب تعدداً فى ذات الوجود، كما أن تعدد أفراد الإنسان لايوجب تعدداً فى حقيقة الإنسان، أو تعدد صور الإنسان الواحد فى المرايا المجاورة لا تحتم تعدده.

تلك هـى فكرتهم فى وحدة الوجود، وهـى سفسطة لا يقبلها منطق ولا عقل ولا شـرع، لأنها تُذهب بالشـرائع كافة، والأديان جميـعـهـا، وتنال من الجـلال والكمـال الواجب لله سبحـانه وتعـالى، وتُبْطل الجـزاء والعـقـاب، والجنة والنار،

والحياة الأخروية، كما تبطل الحدود بين الخالق والمخلوق فتجعل الخلق والخالق شيئاً واحداً.

هذا الإفك الأكبر، وهذا اللغو الإلحادى الفاجر هو الذى قذف به خصوم التصوف المتصوفة، وخاصة الأكابر منهم كالحلاج، والسهروردى، والشيخ محى الدين بن عربى، وإبن الفارض - وهم من هم إيماناً وكمالاً وأدباً وخلقاً، ووحدانية وتقديساً لفاطر السموات والأراضين مما جعل الشعرانى يقول: « إن إبليس نفسه وهو مُلْهم الخبائث، لا يجرؤ على تلك القولة الملعونة، التى إرتكب أربابها أمراً إدّا، تكاد السموات يتفطّرن منه، وتخر الجبال هداً » ويقول أيضاً فى المنن: « وبعضهم رأى أن كل شئ فى الوجود هو الله، وأن عين هذا الوجود الحادث هو عين الله، من الجماد والنبات والعقارب والحيات والجان والإنسان، والمَلَك والشيطان، ويجعلون الخالق هو عين المخلوق، من خسيس ونفيس، ومرجوم وملعون حتى« إبليس، وهذا كلام لا يرضاه أهل الجنون، ولا من كان فى حبه مجنون، والذى أقوله: إن إبليس لو ظهر ونُسب إليه هذا المعتقد لتبرأ منه، وإستحى من الله تعالى، وإن كان هو الذى يُلْقى إلى نفوسهم ذلك ».

وقد أجاب الدكتور عبد الحليم محمود رضى الله عنه فى كتابه (قضية التصوف) صـ١٦١ عن هذا الموضوع بما يشفى الغليل فقال: « وقد تتساءل : فيم إذن حوكم الحلاج وقُضى عليه بالقتل؟ إن أمر هذه القضية: قضية الحلاج: معروف سرها، وما كان سرّاً فى يوم من الأيام.

لقد كان الحلاج قوة جارفة، كان مركزاً للجاذبية لا يُضارع، يلتف حوله الناس أينما حلّ، ويسيرون حوله أينما إرتحل.

وكان ككل صوفى، يحب آل البيت، لأنه كان يحب الرسول صلى الله عليه

وسلم، وكان آل البيت إذ ذاك يطمحون فى أن تكون الدولة لهم، وما كان بنو العباس يطمئنون إلى شخصية كشخصية الحلاج المحبة لآل البيت، نسل رسول الله، صلوات الله وسلامه عليه.

وما دام الحلاج دعاية قوية تسير فى كل مكان، وتتجه إلى كل بلد، فيجب - حفاظاً على أمن الدولة وتحصيناً لإستقرارها - أن ينكّل بالحلاج.

وما كان مقتل الحلاج دينياً قط، كلا، وإنما كان سياسياً بحتاً، ومن السهل على الملوك المستبدين أن يزيفوا القضايا، أن يأتوا بشهود الزور، وأن يَعِدُوا القضاة بالمال والترقية، وأن ينفذوا أهواءهم.

فكان ما كان من قضية ومن قتل .. والدين من كل ذلك براء، والألفاظ التى ينسبونها للحلاج ليست فى كتاب من كتبه، وكتبه - وبعضها موجود - لا تسند خصومه ولا تؤيدهم » ثم يضع رضى الله عنه قاعدة عظيمة للبحث فى هذا الباب فيقول: « إن المنطق الصحيح: ألا يفتى المهندس فى أبحاث الأطباء، وألا يحكم الأديب بإعتباره أديباً، فى أعمال المهندسين.

ومن العدالة - على هذا الوضع - ألا يحكم على هذه القمم الشامخة إبن عربى، والحلاج، وإبن الفارض، من لم يبلغ مداهم أو يقاربه ».

ثم يستشهد بأقوال الأئمة الأعلام على ذلك فيقول: « أما الإمام الشافعى - رضوان الله عليه - فإنه يقول عن خصوم سيدنا محى الدين: « إن حكمهم حكم ناموسة نفخت على جبل تُريد إزالته من مكانه، وتذهب الريح بأمم من الناموس، وتبقى الجبال شوامخ راسيات، بها تثبت الأرض، وبها يحفظ ميزان الدنيا ».

والرأى الذى لا يتأتى غيره من المنصف، الرأى الحق، هو ما قاله الإمام الشعرانى عن الصوفية عامة، وعن سيدنا محى الدين خاصة: « ولعمرى إن

عباد الأوثان لم يجرءوا على أن يجعلوا آلهتهم عين الله، بل قالوا: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، فكيف يُظن بأولياء الله أن يدّعوا الإتحاد بالحق سبحانه، هذا محال فى حقهم، رضوان الله عليهم » أ.هـ [قضية التصوف صـ١٦٣].

وما بالنا نذهب بعيداً، وهذه كتب سيدى محى الدين موجودة بيننا، وليس فيها ما يدعيه هؤلاء بل إن بها ما يكذب دعواهم، وها نحن ننقل منها بعض النصوص التى تؤيد ذلك:

يقول الإمام محى الدين بن عربى فى عقيدته الوسطى: « إعلم أن الله سبحانه واحد بإجماع، وقيام الواحد يتعالى أن يحلّ فيه شئ، أو يحلّ هو فى شئ، أو يتحد بشئ ».

ويقول فى باب الأسرار من الفتوحات: « لا يجوز للعارف أن يقول أنا الله، ولو بلغ أقصى درجات القرب، وحاشا للعارف من هذا حاشاه ».

ويقول أيضاً فى لوائح الأنوار: « من كمال العرفان شهود عبد ورب، وكل عارف نفى شهود العبودية فى وقت ما، فليس بعارف، وإنما هو فى ذلك الوقت صاحب حال، وصاحب الحال سكران لا تحقيق عنده ».

ويقول فى الفتوحات: « لا حلول ولا إتحاد، فإن القول بالحلول مرض لا يزول، وما قال بالإتحاد إلا أهل الإلحاد، كما أن القائل بالحلول من أهل الجهل والفضول، ومَنْ دينه معلول ».

ويقول فى باب الأسرار: « أنت أنت. وهو هو. فإياك أن تقول كما قال العاشق، أنا من أهوى ومن أهوى أنا، فهل قدر هذا أن يرد العين واحدة، لا والله، والجهل لا يُتعقل حقاً »، وقال أيضاً: « إياك أن تقول أنا هو وتغالط، فإنك لو كنت هو لأحطت به كما أحاط تعالى بنفسه ».

ثم يقول: « لو صح أن يرقى الإنسان عن إنسانيته، والمَلَك عن ملكيته، ويتحد بخالقه تعالى، لصح إنقلاب الحقائق، وخرج الإله عن كونه إلهاً، وصار الحق خلقاً؟ والخلق حقاً؟، وما وثق أحد بعلم، وصار المحال واجباً، فلا سبيل إلى قلب الحقائق أبداً ».

ويقول الجنيد شيخ الطريقة فى الرد على الفجرة الفسقة أصحاب وحدة الوجود: « إن هذا كلام من يقول بالإباحة، والسرقة والزنا عندنا أهون حالاً ممن يقول بهذه المقالة ».

و سُئل العارف الربانى الإمام سهل بن عبد الله التسترى عن ذات الله عز وجل فقال: « ذات الله موصوفة بالعلم، غير مدركة بالإحاطة، ولا مرئية بالإبصار فى دار الدنيا، وهى موجودة بحقائق الإيمان، من غير حدّ ولا حلول، وتراه العيون فى العقبى ظاهراً فى ملكه وقدرته، وقد حجب الخلق عن معرفة كنه ذاته، ودلهم عليه بآياته، فالقلوب تعرفه، والعقول لا تدركه، ينظر إليه المؤمنون بالإبصارمن غير إحاطة ولا إدراك نهاية »، ويقول أيضاً مخاطباً الغرور البشرى، والوجود الإنسانى: « يا مسكين! كان الله ولم تكن، ويكون الله ولا تكون، فلما كونك اليوم صرت تقول: أنا، وأنا، كن الآن كما كنت قبل تكوينك، وإعرف فاقة نفسك وحقارتها، ونزلها منزلتها من الذلة والإحتقار ».

إتهام الصوفية بالحلول والإتحاد

ولسائل أن يسأل فكيف إذن نسبت هذه الدعوى إلى التصوف، أو إلى بعض المتصوفة؟ يجيب الشعرانى رضى الله عنه عن ذلك إجابة جامعة مانعة فيقول: « ومن يقول لا موجود إلا الله، فذلك من مقام المريد المبتدئ، لأنه من

شدة تعشقه فى الطريق، وترحل قلبه عن محبة غير الله تعالى، يصير قلبه محجوباً عن شهود الأكوان، كما يقع لصاحب المصيبة إذا مات له ولد، أو تلف له مال، فإنه من شدة المصيبة يصير يدخل الدار ويخرج، ولا يرى صاحبه الجالس على بابه، فإذا سُئل: هل رأيت فلاناً قال: لا، فإذا قيل له: لقد كان أمامك، قال، والله من شدة الهم ما رأيته ».

ثم يقول: وليس مراد المبتدئ فى الطريق، أن ينفى وجود العالم كله، كما يظن من لا علم له بأحوال أهل الطريق، بل مراده أن الله تعالى قد أخذ حبه بمجامع قلبه، حتى حجبه عن شهود خلقه.

وإذا كان النساء اللاتى خرجن على يوسف عليه السلام ذُهلن عن أنفسهن، حتى قطّعن أيديهن، ولم يشعرن بألم القطع، فكيف بذهول من تعلّق قلبه بحب ربه، وشاهد من آياته الكبرى.

وقد روى القشيرى عن الشبلى أنه كان يزور فى بداية أمره شيخه الحصرى كل يوم جمعة، فقال له شيخه يوماً: يا أبا بكر، إن خطر فى بالك غير الله تعالى من الجمعة إلى الجمعة، فلا تعد تأتينا، فإنه لا يجئ منك شئ ».

ذلك هو أدب الطريق الصوفى الذى يلقنه الشيوخ للمبتدئين، أن ينفوا الوجود عن قلوبهم، بل عن خواطرهم، لتمتلئ كل جوارحهم بذكر الله، وحب الله، وجلال الله.

تلك معنويات عليا يتذوقها المؤمنون العابدون، ولا شأن لها بما أراد المضللون الذين توهموا فى هذا القول المنير وحدة الوجود، أو الإتحاد والحلول.

لم ينف المتصوفة بهذا القول الإيمانى العظيم وجود الكون، ولم يتصوروا، بل لم يجل بخواطرهم ، أن معنى ذلك وحدة أو حلول بل إنهم قوم حجبتهم المحبة

عما سوى الله، فلم يروا فى الكون سواه، وهذه ليست مسألة حسية وجدانية أى ليس معناها أن الكون قد زال أو فنى، وإنما معناها أن القلب المحب قد إستغرقه جلال محبة الأعظم، فلم ير إلا إياه.

يقول الشعرانى: « أجمع أهل الحق على أن حقائق الأشياء ثابتة، فكيف يصح نفيها، إنما العبد يُحجب عنها بما دهمه من الأمور العظيمة، قيل للشبلى: ما التوبة؟

قال: ألا تشهد فى الدارين سواه، أى لا تشهد فى الدارين خالقاً،أو رازقاً، أو مؤثرًا ومُدبرًا سواه، وإن شهدت لأحد وساطة أو أثراً فى عمل ما، فلا تلتفت إلى ذلك.

وليس معنى هذا أن لا نشهد غير الله أصلاً من جميع الأكوان، فإن ذلك لا يصح للمقربين وذلك معنى قوله صلوات الله وسلامه عليه: « **أصدق كلمة قالها شاعر، كلمة لبيد: « ألا كل شئ ماخلا الله باطل »**، أى كالباطل، من حيث إن كل شيئ قائم بالله تعالى لا بنفسه، فإن شاء الله أبقاه، وإن شاء أذهبه فى لمح البصر أو هو أقرب ».

ذلك إذن فناء المبتدئين، أو مقام المريدين، أو حجاب السالكين، فى أول الطريق، يحجبون بحب الله عما سواه، أما الكمل السادة، فقد إرتفعوا فوق تلك المعانى، ولم يقفوا مع هذه العقبات، بل رءوا الله جل جلاله، ورءوا الكون أيضاً وذلك أكمل ألوان العبادات، وفى ذلك يقول السراج الطوسى فى اللمع: « فإن وُجد فى كلام الكمل من المتصوفة معنى الفناء فى الله جل شأنه، فالمعنى الصحيح المقصود من ذلك، أن الإرادة للعبد، وهى من عند الله عطية، ومعنى خروج العبد من أوصافه، والدخول فى أوصاف الحق،

خروجه من إرادته، ودخوله فى إرادة الحق، وذلك منزل من منازل أهل التوحيد.

وأما الذين غلطوا فى المعنى، إنما غلطوا بدقيقة خفيت عليهم، حتى ظنوا أن أوصاف الحق هى الحق، وهذا كله كفر، لأن الله تعالى لا يحلّ فى القلوب، ولكن يحلّ فى القلوب الإيمان به، والتوحيد له، والتعظيم لذكره ».

ويقول الهجويرى واصفاً الفناء « بأنه فناء إرادة العبد فى إرادة الله، لا فناء وجود العبد فى وجود الله ».

ذلك هو الفيصل بين المتصوفة وخصومهم، فالفناء الصوفى فناء معنوى، لا فناء مادى كما توهم المتوهمون.

يقول القشيرى فى باب الفناء: « ومن إستولى عليه سلطان الحقيقة، حتى لم يشهد من الأغيار، لا عيناً، ولا رسماً، ولا طللاً، يقال إنه فنى عن الخلق، وبقى بالحق ».

ثم يقول: « وفناؤه عن نفسه، وعن الخلق، بزوال إحساسه بنفسه وبهم، فإذا فنى عن الأفعال والأخلاق والأحوال، فلا يجوز أن يكون ما فنى عنه من ذلك موجوداً، وإذا قيل فنى عن نفسه، وعن الخلق، فنفسه موجودة، والخلق موجودون، ولكنه لا علم له بهم، ولا به، وقد نرى الرجل يدخل على ذى سلطان، فيُذهل عن نفسه، وعن أهل مجلسه، هيبة، حتى إذا سُئل بعد خروجه من عنده عن أهل مجلسه، لم يمكنه الإخبار بشئ ».

هو فناء إجلال وحب إذن، لا فناء عين، فناء القلب المستغرق فى أنوار الجلال الإلهى عما سواه.

إبن تيميـــة ومقـــام الفنــــاء

ومن عجب، أن مقام الفناء، الذى إتُّهم فيه المتصوفة بوحدة الوجود تارة، والإتحاد والحلول تارة أخرى، مقام من صميم التوحيد الإسلامى، بل هو المقام الذى ترتكز عليه العبادات الربانية كافة، حتى أن إبن تيمية – رغم شهرته بمهاجمة الصوفية – يخصص لشرحه فى كتبه مكاناً، لم يخصصه لغيره من مواقف الفكر الإيمانى.

يقول الإمام إبن تيمية فى كتابه (العبودية) صـ٩٦ متحدثاً عن مقام الفناء فى المحبة الإلهية: « الفناء عن إرادة ما سوى الله، بحيث لا يحب إلا الله، ولا يعبد إلا إياه، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يطلب من غيره، وهو المعنى الذى يجب أن يُقْصد، بقول الشيخ أبى يزيد حيث قال: أريد أن لا أريد: أى المراد المحبوب المرضى، وهو المراد بالإرادة الدينية، وكمال العبد، أن لا يريد، ولا يرضى، ولا يحب، إلا ما أراده الله ورضيه وأحبه، وهذا معنى قولهم فى قوله تعالى: **« إلا من أتى الله بقلب سليم ».**

قالوا هو السليم مما سوى الله، أو مما سوى عبادة الله، أو مما سوى إرادة الله، أو مما سوى محبة الله، فالمعنى واحد، وهذا المعنى إن سمى فناء، أو لم يسم، هو أول الإسلام وآخره، وباطن الدين وظاهره »، ثم يتحدث إبن تيمية عن المقام الثانى من مقامات الفناء فيقول: « وأما النوع الثانى، فهو الفناء عن شهود السوى، وهو يحصل لكثير من السالكين، فإنهم لفرط إنجذاب قلوبهم إلى ذكر الله وعبادته ومحبته، ضعفت قلوبهم عن أن تشهد غير ما تعبد، وترى غير ما تقصد لا يخطر بقلوبهم غير الله، بل ولا يشعرون، كما قيل فى قوله تعالى: **« وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً، إن كادت لتبدى به، لولا أن ربطنا على قلبها »** قالوا فارغاً من كل شئ إلا من ذكر موسى.

وهكذا كثيراً ما يعرض لمن دهمه أمر من الأمور، إما حب، وإما خوف ، وإما رجاء، يبقى قلبه منصرفاً عن كل شئ إلا مما قد أحبه، أو خافه، أو طلبه، بحيث يكون عند إستغراقه فى ذلك، لا يشعر بغيره، فإذا قوى على صاحب الفناء هذا، فإنه يغيب بموجوده عن وجوده، وبمشهوده عن شهوده، وبمذكوره عن ذكره، وبمعروفه عن معرفته، حتى يفنى من لم يكن – وهى المخلوقات المبعدة ممن سواه – ويبقى من لم يزل، وهو الرب تعالى.

والمراد فناؤها فى شهود العبد وذكره، وفناؤه عن أن يدركها أو يشهدها، وإذا قوى هذا ضعف المحب، حتى يضطرب فى تمييزه فقد يظن أنه هو محبوبه، كما يذكر أن رجلاً ألقى نفسه فى اليم، فألقى مُحبّه نفسه خلفه، فقال: أنا وقعت، فما أوقعك خلفى، قال: غبت بك عنى فظننت أنك أنى »

ويقول إبن تيمية أيضاً فى مجموعة رسائله صـ٥٢: « وأما قول الشاعر فى شعره:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا

فهذا إنما أراد به الشاعر الإتحاد المعنوى، كإتحاد أحد المحبين بالآخر، الذى يحب أحدهما ما يحب الآخر، ويبغض ما يبغضه، ويقول مثل ما يقول، ويفعل مثل ما يفعل، وهذا تشابه وتماثل، لا إتحاد العين بالعين، إذا كان قد إستغرق فى محبوبه، حتى فنى به عن رؤية نفسه، كقول الآخر:

غبت بك عنى فظننت أنك أنى

فهذه الموافقة هى الإتحاد السائغ »، ويقول إبن تيمية أيضاً فى الرسائل: « روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله تعالى: **« من عادى لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة »**، فقوله: « من عادى لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة » جعل معاداة عبده الولى، معاداة له، فعين

عدوه عين عدو عبده، وعين معاداة وليه عين معاداته، ليسا هما شيئين متميزين »وهكذا لا نجد رداً على خصوم الصوفية، الذين هاجموهم فى مقام الفناء، وإتخذوا منه تكئة لإتهامهم بوحدة الوجود، وفكرة الإتحاد والحلول، أبلغ من هذا التفصيل الرائع لمقامات الفناء الذى كتبه إبن تيمية رحمه الله.

ولا نجد شاهداً أكبر دلالة مما إستشهد به هو من القرآن الكريم: « **وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً** » أى فارغاً مما سوى موسى.

وقلب المتصوفة لشدة حبهم لربهم، أصبح فارغاً مما سوى الله جل جلاله، وربنا سبحانه أكبر وأعظم من أن يشبه بعبد من عباده أو برسول من رسله، والله الموفق والمعين.

الفصـــــل الثاني

الصوفيـــة والتصـــوف

- حقيقة الصوفيـــة
- الصوفية والوقـــت
- ثمار الأعمال الصالحـة
- أدعيـاء الصـوفيـــة



الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله رسول الهداية وقطب الولاية ووارث النور صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وكل من إتبع هداه إلى يوم الدين آمين.

يتساءل بعض الناس ما موقع الصوفية بالنسبة للدين الاسلامى؟

حقيقــــة الصوفيــــة

هل الصوفية من الدين وإذا كانت من الدين فأى جانب إختُصت به من هذا الدين؟

ونقول لهؤلاء الصوفية هى الإسلام بمعنى أن الإسلام شرائع وأحكام وأوامر من الله عز وجل لجميع الأنام هذه الشرائع وهذه الأحكام لا تنفع المرء إلا إذا عمل بها مخلصاً لله عز وجل بمعنى أن من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله ولم يعمل بشرائع الإسلام فترك الصلاة ولم يخرج الزكاة وترك الصيام ولم يعمل بأوامر الله ولم ينفذ سنة رسول الله هل هذا يعد مسلماً فى نظر الله عز وجل؟

بالطبع لا، بل يعد خارج دائرة الإسلام الحقيقى وإن كان إسمه إسم مسلم ونطق بالشهادتين وفى شهادة ميلاده مكتوب مسلم وفى بطاقته الشخصية أو العائلية مكتوب مسلم فإن المسلم عند الله هو الذى قال صلى الله عليه وسلم فى شأنه « **ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدّقه العمل وإن قوماً خدعتهم الأمانى وغرّهم بالله الغرور وقالوا نحسن الظن بالله وكذبوا لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل** ».

إذن أحكام وتشريعات الإسلام لا تنفع المرء يوم الزحام إلا إذا عمل بها

مخلصاً للملك العلام عز وجل فالذى ينطق بالشهادتين هو المسلم والذى يعمل بشرائع الإيمان هو الصوفى إذن الصوفى هو الرجل الذى يعمل بأحكام دينه فأى رجل يعمل بأحكام دين الله إذن هو صوفى لأن الصوفية هى العمل بما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ولماذا إذن خُصّوا بهذا الإسم؟

لأنهم يقصدون بعباداتهم وأعمالهم الوصول إلى مراتب الصفاء ومنازل الأصفياء فيلاحظون فى العمل أن يكون خالياً من الرياء – وهو العمل لأجل الشهرة والخلق – وأن يكون خالياً من العُجْب – وهو العمل لإرضاء النفس – ويحرصون على أن يكون العمل لله أى طلباً لمرضاة الله وهذا لخاصة القوم (المقربون) أو بغية الحصول على ثواب الله وهذا مقصد أهل اليمين فالصوفى الحقيقى هو الذى يعمل العمل لله عز وجل والصوفية هى العمل بأحكام الله التى نزلت على رسول الله فى كتاب الله أو وضحها فى سنته رسول الله صلوات الله وسلامه عليه.

الصوفيـــة والوقـــت

هذا بالإضافة إلى أن الرجل الصوفى يحاول أن يستغل عمره وأيامه وأنفاسه فى الإستعداد للدار الآخرة فيقسم وقته إلى ثلاثة أقسام إما فى سعى على معاش ضرورى وإما فى مصلحة خاصة له (أكل أو شرب أو نوم) وإما طاعة لله عز وجل ولا يوجد عنده وقت آخر فالصوفى لا يوجد عنده وقت للهو أو للعب ولا للقيل أوالقال أو ما شابه ذلك من الأقوال أو الأعمال لأن الله عز وجل قال لرسوله صلى الله عليه وسلم « **فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب** » [الآيتان (٧، ٨) الشرح] أى إذا فرغت من العمل

فى الرزق والسعى للمعاش فإنصب أى إتعب فى ذكر الله عز وجل وذكر الله وطاعة الله هنا ليس معناها ترديد الذكر باللسان فقط بل كل عمل ينوى به الإنسان رضاء الله عز وجل يكون ذكراً لله فالذى يزور قريبه وينوى بهذه الزيارة صلة الرحم ولم يرتكب فيها غيبة ولا نميمة ولا قيل ولا قال فالعمل هنا يعتبر ذكر لله عز وجل والذى يزور مريضاً لوجه الله يكون ذاكراً لله وكذا الذى يشيع جنازة أما الذى يصلح بين إثنين متخاصمين فهذا فى أعظم الذكر لقوله صلى الله عليه وسلم: **« ألا أدلكم على ما هو أفضل من الصلاة والصيام والزكاة وحج البيت؟ قالوا ما هو يا رسول الله قال: إصلاح ذات البين »** فالصلح بين إثنين عبادة لا يوجد لها مثيل فهى أفضل من قيام الليل وصيام النهار أو أى عبادة لله عز وجل وإن كان هذا فى النوافل وليس فى الفرائض فأى عمل يعمله المرء وينوى به رضاء الله يكون هذا العمل ذكراً لله عز وجل حتى يصل الأمر بالإنسان إذا إستطاع أن يحسن نواياه أن يكون فى كل أحواله ذاكراً لله عز وجل حتى إذا لاعب إبنه أو داعبه فما دام قد سبقته نية صالحة يكون عمله هذا ذكراً لله وهكذا فى أى عمل يعمله سواء كان هذا العمل صغيراً أو كبيراً يكون ذاكراً لله عز وجل هذا فضلاً عن الأعمال العبادية كتلاوة القرآن فهو ذكر لله عز وجل وكذا الإستغفار والصلاة على النبى والتسبيح والتحميد والتقديس فكلها ذكر لله عز وجل ومطالعة العلم الدينى ذكر لله عز وجل فإن الذى يقرأ كتاباً فى سيرة النبى أو عن حياة الصالحين أو فى الفقه أو فى تفسير القرآن يقوم بعبادة لا يوجد لها مثيل يقول فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم **« لأن تغدو فتقرأ باباً من أبواب العلم خير لك من أن تصلى مائة ركعة »** وأنتم تعرفون أن درس العلم يقول فيه الرسول صلى الله عليه وسلم **« مجلس علم خير من عبادة سبعين سنة ليلها قيام ونهارها صيام »** وذلك لأن العلم يحيى القلوب ويعرف

الإنسان الحلال والحرام والصحيح من الخطأ فيسير الإنسان على الطريق الصحيح فى حياته الدنيا. فالصوفى بعدما ينتهى من سعيه على معاشه الضرورى ويقضى حاجاته الضرورية من أكل أو شرب أو نوم يقضى وقته مع الله عز وجل لأن أكبر شئ يتحسر عليه الإنسان يوم القيامة الوقت والصحة قال صلى الله عليه وسلم: « **نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ** » مادام الإنسان صحيح فما العذر الذى يقدمه لله عز وجل عن عدم قراءته للقرآن الكريم، وما العذر الذى يقدمه عندما يكون فارغاً ولا يذكر الله عز وجل؟

فأوقات الفراغ تكون أكبر شئ يتحسر عليه المرء يوم القيامة فمثلاً أنا ماش للمحطة لماذا لا أذكر الله مع أن هذه الأشياء هى التى تنفعنى فى الآخرة « **والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً** » [الآية (٤٦) الكهف] ولذلك هل هناك أحد يدخل الجنة ويندم؟ قال النبى صلى الله عليه وسلم نعم « **لا يندم أهل الجنة وهم فى الجنة إلاّ على الساعة التى مرت بهم دون ذكر الله عز وجل** » فالذى يدخل الجنة يقول لماذا لم أستكثر من هذا الخير؟ والذى لم يدخل الجنة يقول لماذا ضيعت هذه الأوقات وقضيتها فى المعاصى والغفلات؟ فالكل سوف يندم على الأوقات التى ضيعّها فى حياته الدنيا ولذلك فأحد العلماء العاملين وهو الشيخ كمال الدين الأخميمى كان يزور الشيخ عبد الرحيم القنائى وقد كان من أهل الشفافية والصفاء وهؤلاء لما يزور أحدهم رجلاً من الصالحين يراه ويكلمه فبعدما تحدث مع الشيخ عبد الرحيم القنائى وفى نهاية حديثه قال له يا سيدى أوصنى قال يا بنى لا تغفل عن ذكر الله طرفة عين فأنا كما ترى فى روضات عالين ومع ذلك أقول « **يا حسرتى على ما فرطت فى جنب الله** » [الآية (٥٦) الزمر] لماذا؟

لأن النبى يقول « **ما من ميت يموت إلا وقال مَنْ حوله من البشر ماذا ترك؟ وقالت الملائكة ماذا قدم** » فنحن نقول ماذا ترك لأولاده؟ والملائكة تقول ماذا قدم لآخرته؟ وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم « **أيكم يحب ماله أكثر من مال وريثه؟ قالوا: كلنا، قال فمالك ما قدّمت ومال وريثك ما أخرت** » لذلك ذبح صلى الله عليه وسلم شاه ذات يوم وقال للسيدة عائشة: أطعميها للفقراء والمساكين وبعد ما رجع سألها عما صنعت فقالت: رضى الله عنها لم يبق إلا كتفها فقال: يا عائشة كلها باق إلا كتفها » « **ما عندكم ينفد وما عند الله باق** » [الآية (٩٦) النحل] فالإنسان الذى يخرج من الدنيا ولا أحد يعرف متى يخرج – عندما يطّلع على عمله وينظر فى دواوين طاعته فيجدها قليلة يشعر بالندم وهذا ما يجعل الصوفى عندما ينتهى من سعيه على معاشه يقضى بقية وقته فى التقلب فى ذكر الله أو فى عمل خير أو برّ

ثمــــار الأعمــــال الصالحــــة

وعندما يعمل المرء بما علم تحقيقاً لقول النبى صلى الله عليه وسلم « **من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يكن يعلم** » يتفضل الله عليه ببعض المنح والعطايا نتيجة وثمرة لجهاده وعمله بأحكام شرع الله فربما يقرأ القرآن وعند إسترساله فى القراءة يشعر بفهم للآيات ومعانى ترد على قلبه لم يقرأها فى أى كتاب تفسير من أين أتت هذه المعانى؟

من قول الله عز شأنه « **وإتقوا الله ويعلمكم الله** » [الآية (٢٨٢) البقرة]، ويترقى عندما يعمل هذه الأشياء فيعطيه الله الشفافية أو الصفاء النفسى فيكون كمن معه أشعة ولكنها أشعة نورانية تجعله يحس بأشياء والأشياء

التى يحسـها تتحقق على الفور وهذا يقـول فيه النبى صلى الله عليه وسلم « **إتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله** ».

فعندما ينظر إلى وجه رجل يعلم أنه عمل كذا وعندما يتكلم يعرف أنه يكذب أو يتحدث بصدق كيف يعرف هذا؟

هذه أشياء يحسها بقلبه يعطيها له الله جزاء إخلاصه وسعيه لما يرضى الله عز وجل هذا فضلاً عن المنامات التى يكرمهم بها الله فى البداية فأحياناً يرى بعض الصالحين ويحدثهم ويحدثونه وآونة يرى بعض ما فى الجنة أو ما فى السموات، ربما يرى الملائكة ويتعرف عليهم وإذا أكرم أكثر يأتى له سيدنا رسول الله، وهذا الإكرام بأنواعه بشرى عاجلة فما دام قد أطاع الله فقد أصبح فى عداد من يقول فيهم الله « **ألا أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنـون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة** ». [الآيات من (٦٢: ٦٤) يونس] فيكرمهم الله بعد الرؤيا الصالحة بشئ من الفراسة وإن كان بعض الناس الغافلين لا يعرفون هذا فيكذبون عليهم فيرون أنهم كاذبون ولكنهم يستحيون أن يحرجونهم لأن الله عز وجل جعل لهم بصيرة فى قلوبهم يقـول فيها صلى الله عليه وسلم عن ربه عز وجل: « **قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن إتبعنى** » [الآية (١٠٨) يوسف] هذا غير البُشْريات التى يرونها فى ساعة خروج الروح وفى القبر وفى يوم لقاء الله نتيجة للطاعات والعمل الصالح الذى قاموا به بعد تعلمهم لأحكام الشريعة المطهرة.

إذن فالذى يقول أنا صوفى ولا يعمل بأحكام الشريعة نقول له أنت نصَّاب وكذاب لأن الصوفى أول من يعمل بشريعة الله وكذلك الذى يقول أنا صوفى ووقته كله للمسلسلات والمباريات نقول له: « أنت نصَّاب وسيظهر الله عز وجل حقيقة أمره « **يوم تبلى السرائر** » [الآية (٩) الطارق]، والذى يقول أنا صوفى وجالس فى مجالس كلها قيل وقال نقول له: أنت كذاب وستحاسب حساباً شديداً يوم لقاء الله على ذلك لأن الصوفى يحاول ألا يخطئ فإذا كان لا يستطيع أن يكسب فعلى الأقل ألا يخسر فإذا كان لا يستطيع أن يكسب الوقت فى الطاعة فعلى الأقل لا يخسره فى معصية وأكبر المعاصى التى تمحق نصيب الإنسان من الحسنات يوم القيامة الغيبة والنميمة والقيل والقال إذن الصوفى إما تجده فى عمله أو فى طاعة الله أو فى نوع من أنواع ذكر الله عز وجل أما الأعمال التى تبعد عن حضرة الله فلا يعملها الصوفى لأنه يستحضر دائماً فى قلبه قوله صلى الله عليه وسلم « **يا أبا ذر كثِّر الزاد فإن السفر طويل وأخلص العمل فإن الناقد بصير وخفِّف الحمل فإن العقبة كؤود** ».

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.



الفصل الثالث

ميزان أحوال الصالحين
(رسول الله صلى الله عليه وسلم)

- كيفية معرفة الرجال
- ميزان الكشف الصحيح
- ميزان أهل الجذب
- ميزان أحوال الرجال
- وراثة العلم الوهبي
- ميزان الصدق

كان هذا الدرس بالسهرة بعد صلاة العشاء بالسرادق المقام أمام منزل الأخ مجدى رجب بقرية ميانة مركز مغاغة محافظة المنيا يوم الخميس ٥ محرم ١٤١٧هـ والموافق ٢٣/ ٥/ ١٩٩٦م



بسم الله الرحمن الرحيم

« **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله** » [الآية (٣١) آل عمران]
هذه الآية يا إخوانى هى الميزان الذى يضعه الله عز وجل ليزن به صدق إتباع النبى العدنان صلى الله عليه وسلم فإن الكل يدعى حبه ويدعى حب الله والإقبال على الله والعمل بكتاب الله وبالطبع لا يوجد أبهى ولا أزهى فى الدنيا والآخرة من الدعوة إلى الله عز وجل كما نعرف « **ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً** » [الآية (٣٣) فصلت] لا يوجد أحسن من هذا، فالأرواح الطيبة دائماً تريد أن تتعلق بهذا الأمر وترغب فى أن يعرف الناس أنها من أهل الصلاح وأنها من أهل التُّقى وأنها من أهل الولاية وأنها من أهل العناية ولذلك نجد كثيراً من إخواننا الصوفية يحاول أن يُجمّل نفسه حتى يظهر بين إخوانه ومعارفه وخلاّنه بأنه صورة صالحة فبعضهم يتكلف قيام الليل وبعضهم يكثر من الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يراه صلى الله عليه وسلم فى المنام ويقول للناس إننى أرى النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام فيعرف الناس أنه رجل صالح لأنه يرى النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام ويعتقدون فيه أكثر وبعضهم يجاهد لنفسه بمجاهدات ومكابدات شديدة حتى يصل إلى مقام الفراسة ليكاشف الناس بما فى نفوسهم فيزيد إعتقاد الناس فيه ويعرفون أنه على قدم فى الصلاح لأنه عرفهم الذى حدث منهم بالأمس أو أنه يخبئ كذا فى مكان كذا وهذه الأمور موجودة وتدل على أن الناس الأفاضل والنفوس الصالحة تريد أن تظهر فى مظهر صالح لأن هذا هو أبهى وأزهى وأكمل شئ فى الوجود فى الدنيا والآخرة حتى أن بعضهم أو كثير منهم إذا لم يصل إلى حالة من الحالات التى ذكرناها يأتى بالكتب التى فيها بعض الفوائد الروحانية وبعض العلاجات ويعالج بها الناس ويوصى بها الناس ليقولوا عنه إنه رجل صالح

لأنه يعالج الناس وبعضهم يظل يجاهد حتى يُسَخّر له أحد الجان ليصل إلى درجة أعلى فى العلاج حيث الجن يسترق السمع كل هذا لأن النفس ترغب فى الظهور بمظهر الصلاح والتقوى.

كيفيـــة معـــرفة الرجـــال

ما الذى يعرّفنى هذا من هذا، أو أيهم الصحيح وأيهم الأصح؟

ربنا سبحانه وتعالى لم يتركنا فى حيرة فأعطانا الميزان الذى سمعناه من كتاب الله عز وجل « **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله** » فالميزان المتابعة لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فكل الذى يقول إنى أحب الله نزن أفعاله وليس أقواله وذلك لسهولة الكلام فنزن أفعاله وأحواله وأخلاقه بالميزان الذى وضعه الله اجميع خلق الله وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو الميزان للكل هو ميزان الأعمال وهو ميزان الأقوال وهو ميزان الأحوال وهو ميزان القبول والإقبال وهو ميزان الوصول لحضرة الله عز وجل وهو ميزان الكشف وهو ميزان النور وهو ميزان الهداية وهو ميزان كُلّ بِرّ وكل مكرُمة وكل مِنّة واصلة من الله إلى عباد الله عز وجل وكأن الله عز وجل قال لنا فى شأنه صلى الله عليه وسلم بلسان الحال « هذا محبوبى وعمله مطلوبى وحاله مرغوبى فمن إقتدى بهداه فهو السعيد فى الدنيا والآخرة لأنه سينال محبة الله ورضا الله عز وجل ومَنْ خالف هُدَاه ولو كان مُدّعياً أنه يعمل بشرع الله فهو ساقط المنزلة عند الله عز وجل لأنه لم يزن حاله بحال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فهو الميزان يا إخوانى ».

ميزان الكشف الصحيح

ولنوضح أكثر فإذا فرض أن رجلاً تفضّل عليه الله عز وجل بمقام الكشف ما الذى يعرفنا أن هذا الرجل كشفه صحيح أو مُلّبس عليه؟ نزنه بالسنة المطهرة وبأفعال رسول الله صلى الله عليه وسلم الظاهرة لأن الباطن لا يعلمه إلا الباطن عز وجل « **فلنا الظاهر والله يتولى السرائر** » فإذا كان يدّعى الكشف ويترك الصلاة بحجة كما يقول البعض أنه وصل إلى الله عز وجل هل ينفع هذا؟ لا، لأن هذا الكشف شيطانى وليس كشف ربانى فالكشف الربانى لا يأتى إلا بحسن المتابعة لسيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فالكشف الشيطانى يعرفك ما حدث منك بالأمس لأن الشيطان يراك لكن لا يستطيع أن يعرف ما سيأتيك فى غد وما المكتوب لك عند الله؟ وما هو المسجل لك فى اللوح المحفوظ؟ فهذا لا يستطيع أن يعرفه صاحب الكشف الشيطانى لأنه لا يعرف ما سيأتى « **عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من إرتضى** » [الآيتان (٢٦، ٢٧) الجن] فلا يُظْهر هذا الغيب إلا للذى يرتضيه لكن الشيطان يراك وأنت تضع النقود فى المكان الفلانى ويراك وأنت تسير فى المكان الفلانى ويتصنّت عليك وأنت تتكلم مع فلان فيقول لك أنت تكلمت مع فلان فى موضوع كذا لأنه يسمعك هل هذا أمر غريب؟ أبداً لكن إذا أردت أن ترى أحوال الصالحين أهل الكشف فالشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه وأرضاه ظل يبحث عن القطب قطب الزمان فى عصره وزمانه ولماذا يبحث عن القطب؟ لأنه النائب العام عن الحضرة الأحمدية فكل أمر يُمْضيه يُصدّق عليه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم والأمر الذى يصدّق عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه ليس له هوى أو غرض أو علة إلا رضاء الله عز وجل فإن الله عز وجل يؤيده

فى ذلك ولذلك قال الله عز وجل « **يا أيها الذين آمنوا إستجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم** » [الآية (٢٤) الأنفال] فالمفروض أن يقول « إذا دعاكما » لكنه قال « إذا دعاكم » من الذى يدعو؟ رسول الله صلى الله عليه وسلم أى أن الإستجابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم هى عين الإستجابة لذات الله عز وجل وكذا قال عز وجل: « **فالله ورسوله أحق أن يرضوه** » [الآية (٦٢) التوبة] فلم يقل يرضوهما ونحن عندنا فى اللغة العربية يقولون أن الضمير يعود على أقرب مذكور فيعود هنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فالذى يُرْضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يُرْضى الله عز وجل « **لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة** » [الآية (١٨) الفتح]، فرضا الله عن رضا رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس له شئ فى نفسه فليس له هوى أو غرض أو علة ولا يرغب فى منصب أو جاه أو شئ من الدنيا إلا رضا الله عز وجل فقد فنت مُراداته فى مراد الله عز وجل ولم يعد له فى نفسه شئ إلا رضا مولاه وسُدّت أمامه جميع الوُجه الدنيوية والأخروية ولم يبق مفتوحاً فى باب قلبه إلا وجه الله فتولاه الله عز وجل لأنه أفرده بالقصد ووحدّه بالطلب وجعل همّه كله فى رضاه عز وجل ولذا يقول فيه عز وجل « **ووجدك ضالاً فهدى** » [الآية (٧) الضحى] وضالاً هنا لها معنى آخر فليست من الضلال لأنه لم يضل صلى الله عليه وسلم حتى قبل الرسالة والقرآن يفسر بعضه بعضا فأولاد سيدنا يعقوب يقولون له لما سألهم عن سيدنا يوسف - **تالله إنك لفى ضلالك القديم** » [الآية (٩٥) يوسف] أى حبّك القديم ليوسف فلقد إعتقدنا أنك بعد ما نُلْقيه فى البئر ستنساه لكنك لم تنسه فضالاً هنا تعنى مُحباً حُبّاً شديداً إستولى على جميع مشاعرك وحواسك الظاهرة والباطنة فهداك الله به إليه

ودلّك به عليه وأوصلك بنوره إليه حتى صار صلى الله عليه وسلم لا يتحرك إلا بالله ولا ينطق إلا بالله ولا يدبّر إلا بالله ولايتحرك حركة ولا يسكن سكنة إلا بالله عز وجل « **ووجدك عائلاً فأغنى** » [الآية (٨) الضحى] فعائلتك أكبر عائلة فى عائلات الأنبياء فأعطاك ما يكفى هذه العائلة فأغناك بالذى يكفيها من الأنوار ومن الأسـرار ومن العلوم ومن المواهب ومن التـرقـيـات ومن الدرجات ومن الكمالات ومن المُواجهات ومن المؤانسات ومن الملاطفات ومالا تستطيع أن تتحمّله العقول من البيانات الالهية والأسرار الربانية فأعطاك ما يكفى هذه العائلة من التموين الايمانى فكل رجل يأخذ تموين عائلته فَمن إذن المسئول عن تموينننا من النور والهداية ومن الولاية؟ هو رسول الله صلى الله عليه وسلم « **كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك** » [الآية (٢٠) الإسراء] من الذى يمدنا يا رسول الله؟ قال صلى الله عليه وسلم « **الله المعطى وأنا القاسم** » أنظروا إلى حسن أدبه صلوات الله وسلامه عليه الله المعطى وأنا الذى أوزع فنسب الفضل كله لله مع أن الله عز وجل خصه بتوزيع هذا العطاء وهذا الفتح الإيمانى وهذا النور الربانى لجميع السابقين واللاحقين فالكل مُمد من سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وسلم حتى السابقين نعم وحتى الملائكة الكروبيين أهل عالين وأهل علِّيين فالكل مُنْدرج فى قوله عز وجل « **وما أرسلناك إلا كافة للناس** » للكل « **بشيراً ونذيراً** » [الآية (٢٨) سبأ] فهو ليس رسولاً للإنس فقط بل للإنس والجن والملائكة فكل العوالم الروحانية وكل العوالم النورانية كل هذه العوالم إمدادها من المصطفى خير البرية صلى الله عليه وسلم.

فهو الميزان صلوات الله وسلامه عليه فأى رجل يدعى لحال يخالف حال رسول الله صلى الله عليه وسلم فهذا يدل على عدم صدقه فى دعواه إلا حالة واحدة إذا كان هذا الرجل مأخوذاً عن نفسه وعن جسمه وعمن حوله بربه عز وجل فهذا حاله مُسلّم له ما دام لم يخرج عن حدود الشريعة المطهرة فهذا لا نعترض عليه ولا نقتدى به لأنه ليس قدوة فى هذا المقام وإذا كان هذا الرجل مجذوباً حقاً فإنه لا يخرج عن شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفة عين فإنتبهوا إلى هذا الأمر فنسلم له فى بعض الأمور لكن إذا حدث أمر فيه خروج عن الشريعة فهذا دليل على النصب والإحتيال لأن الرجال الصادقين وهم فى قمة أحوال أهل الجذب فإن الله عز وجل ببركة رسول الله صلى الله عليه وسلم يحفظ على الرجل منهم ظاهره من مخالفة الشريعة وإن كان فى غيبة كاملة عن جميع خلق الله ولذلك قال الشيخ محى الدين بن العربى رضى الله عنه وأرضاه:

لا تقتدى بمن زالت شريعته	ولو جاءك بالأنبا عن الله
ما حرمة الشيخ إلا حرمة الله	فقم بها أبداً بالله لله

أى فلا تقتدى به ولو أخبرك أخباراً يقينية لأنه فى حالة الجذب لكن إذا خرج عن الشريعة طرفة عين فيكون جذب شيطانى وليس جذب ربانى لأن أهل الجذب الربانى يحفظ الله عليهم أحوالهم وأجسامهم حتى وهم فى تمام الغيبة عن الناس أجمعين حضوراً بين يدى الله عز وجل هذا هو نظامهم فالميزان يا إخوانى الذى نزن به أحوال الرجال هو هذا الميزان، فلما أراد الشيخ أبو الحسن الشاذلى البحث عن رجل الزمان ذهب إلى مصر وسأل عن الصالحين ومعه العلامات وذهب إلى الشام وذهب إلى العراق وهناك

قالوا له أن الذى تبحث عنه موجوداً عندكم فى تونس أين؟ قالوا له فى المكان الفلانى فنحن الآن نعرف الأخبار من المذياع والتليفزيون أو الصحف لكنهم كانوا فى هذا الزمان يعرفون الأخبار من الصالحين فيسألونهم فيقولون لهم لقد حدث فى الشيشان كذا وحدث فى روسيا كذا فكانت معهم الأخبار دوماً لماذا؟ لأن سيدنا على قال « لو ضاع منى عقال بعير لوجدته فى كتاب الله عز وجل » وكان بعضهم عندما يذهب إليه إخوانه يسألونه عن الأخبار يقول لهم: إنتظروا حتى أقرأ القرآن فيقرأ القرآن فيقول: أخبار بلدة كذا كذا وأخبار دولة كذا كذا فيتساءلون كيف عرفت هذا؟ فيقول: أنبأنى بذلك القرآن والنبى صلى الله عليه وسلم هو الذى قال ذلك « **فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم** » [رواه الترمزى عن سيدنا على رضى الله عنه] لكن هذه الأنباء والأخبار لمن يكشف له الله عز وجل عن هذا السر المكين وعن هذا النور المبين فقد كانوا هم محطات الأخبار ولذلك عندما كان الجيش المصرى يحارب المغول أو الصليبيين فى فلسطين هل ينتظرون حتى يأتى البشير بالأخبار؟ كلا بل الأولياء والصالحون يبلغون الناس فى البلاد فى الحال ويقولون للناس « أبشروا لقد إنتصرنا اليوم على الصليبيين فى حطين أو إنتصرنا اليوم على المغول فى عين جالوت فكانت هذه الأخبار تأتى أولاً بأول فقد كانوا هم الذين معهم هذه الأخبار وكانت أخباراً يقينية ليس فيها شك أو شبهة أو تزوير بل أخبار صدق دائماً لأنه حق اليقين فقالوا له إن الشيخ عندك فى بلاد المغرب فى تونس وحددوا له مكانه أنه فى جبل خارج تونس وعندما وصل إلى الجبل قال له وصلت يا أبا الحسن وصلت يا خليفة الزمان قال له هذا بدون أن يكلمه وأول مرة يراه لكنهم أخذوا هذا الحال وراثة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قول الله له « **تعرفهم بسيماهم** » [الآية (٢٧٣) البقرة] .

فيعرفون الناس بالنور الذي وضعه في قلوبهم رب الناس عز وجل **«وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس»** [الآية (١٢٢) الانعام] فقال له وصلت يا سيدي فقال له انزل حيث عين الماء أسفل الجبل فاغتسل ثم ائتني فنزل فاغتسل وصعد فقال له اغتسلت قال نعم قال لا بل انزل واغتسل ثم ائتني فنزل واغتسل مرة ثانية وصعد فقال له اغتسلت قال نعم قال لا بل انزل واغتسل ثم ائتني ففكر مم إغتسل؟ فعرف أنه حضر إليه ومعه العلوم التي حصّلها قبل هذا ولأجل أن يدخل في دائرة الصالحين لا بد أن يمسح ما معه من الشرائط ليسجلوا مكانها الشرائط النورانية التي عندهم فهل هذا الشريط يصلح أن يُسجّل عليه محاضرتين في وقت واحد؟ لا،لابد أن تمسح محاضرة منهما وهكذا الأمر **«يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب»** [الآية (٣٩) الرعد] فلا بد من المحو قبل الاثبات فلكي اكتب علي ورقة مكتوبة لابد أن أمسح المكتوب عليها أولاً ثم اكتب فالذي يذهب إلي الصالحين ويري نفسه شاطرا ويري نفسه ماهرا ويري نفسه عالما ويري في نفسه أنه رجل ليس له مثيل ماذا يريد بعد ذلك؟ الكوب المملوء ماذا أصبّ فيه؟ فلابد أن تكون فارغة حتي نملأها وهذا ليس كلام وإنما فعال فقد أدّعي أمامهم أنني فارغاً ولكنهم ينظرون فيّ فيتعجبون لماذا تقول غير ما بداخلك؟ لأنهم ليس لهم شأن بالكلام ولا بالحركات ولا بالتمثيل لكنهم يريدون الذي بالداخل - فأدرك كما يقول ادركت أن الشيخ يريد أن أغتسل من علومي التي حصّلتها قال: فتبت إلي الله عز وجل مما حصّلت ثم صعدت إليه وظل في صحبته الزمن الذي قدّره له الله ثم جاء وقت انتقال الشيخ فقال له يا أبا الحسن ستنزل إلي تونس وسيجري لك مع ابن البراء قاضي تونس كذا وكذا وسيسلط عليك رجاله وسيصنع الله لك معه كذا وكذا وستذهب إلي مصر

وستمكث في بلدة الاسكندرية ويحدث لك كذا وكذا ويربي الله علي يديك فلان وفلان قال فأنبأني عن كل شئ سيكون لي إلي أن ألقي الله عز وجل مَنْ يا اخواني يستطيع أن يصل إلي هذا الكشف؟ هذا هو الكشف الرباني أما الكشف الشيطاني فليس له قدرة علي ذلك قال فكأنما كان الشيخ يقرأ من لوح القدر .

واصطفاني هاديا للخلق بعد إذ قال يا موسي وجئت علي قدر

فهؤلاء هم الذين يرون بعين الله وهذا هو الكشف الصحيح الذي نُسلّم له وأهله لا يخرجون عن طاعة الله ولا عن متابعة سيدنا رسول الله صلي الله عليه وسلم طرفة عين ولذلك فالشيخ أبو الحسن قال: بقي لي أربعون عاماً لو غاب عنّي رسول الله صلي الله عليه وسلم طرفة عين ما عددت نفس من المؤمنين.

ميزان أحوال الرجال*

فالميزان الذي نزن به الرجال يا اخواني هو حبيب الله وصفيّ الله صلوات الله وسلامه عليه فمثلاً يأتي رجل يدّعي أنه من أرباب الأحوال ونجد أنه بخيلاً علي ضيفانه فهل هذا صادقاً في إتباعه لرسول الله صلي الله عليه وسلم؟

لا، لأن رسول الله صلي الله عليه وسلم ليس كذلك فقد قالوا فيه:

تعوّد بسط الكفّ حتي لو أنه طواها لقبض لم تطعه أنامله

فلو أنه أراد أن يطويها لم تطعه لأنها تعودت البسط والعطاء **«أجود**

* وقد استوفينا هذا الموضوع في كتابنا «الامام ابو العزائم المجدد الصوفى» في صفحة ١٥٠ وما بعدها تحت عنوان «المرشد الدال علي الله وشبهات في أئمه أهل الطريق. (طبعة دار الايمان والحياة)

للخير من الريح المرسلة» أو يدعي أنه من أرباب الأحوال ويتعامل بالربا هل ينفع ؟ لا، فالميزان هو رسول الله صلي الله عليه وسلم الذي نزن به أنفسنا وأحوالنا وأعمالنا وأخلاقنا فلا نزن به غيرنا فليس لنا شأن بغيرنا فأنا الآن أدّعي حب الله فأقول لنفسي إلي أين وصلت في متابعة رسول الله صلي الله عليه وسلم والمتابعة لكي تكون نافعة ورافعة لابد وأن تكون في الظاهر والباطن فأتابعه في ظاهر الصلاة وأصلي كما كان يصلي تماماً بتمام لكن إذا لم أتابعه في الخشوع وفي الأخبات وفي التمسكن بين يدي الله هل هذه المتابعة جامعة؟ لا، إذاً فتكون غير رافعة لكن المتابعة الكاملة يقول فيها الامام أبو العزائم رضي الله عنه:

فجسمي يصلي بالخشوع لربه وروحي تصلي بالشهود بلا لَبْس.

أطعت رسول الله حباً لوصله فأشرف بي ربّي علي حضره القدس.

هذه هي حقيقة المتابعة.

وراثـــة العلـــم الوهبـــى

فلو تابعته في مدارسة العلم وفي تلقي العلم فلكي يكون هذا العلم رافعا ويفتح لي الله أبواب غوامض العلم الوهبي والعلم الالهامي لابد أن أتابعه في الرحمة والشفقة والعطف والحنان لجميع خلق الله كما قال الله تعالي **«أتيناه رحمةً من عندنا وعلمناه من لدنا علماً»** [الآية (٦٥) الكهف] فلو أن أحداً حدثني بعلوم وهبية لكني لم أجد فيه الحنانة المحمدية والرحمة الأحمدية - والحنانة المحمدية أكثر من حنان الأب والأم لأن حنان الأمهات والآباء من البداية إلي النهاية كله جزء صغير جداً جداً جداً من حنان رسول الله صلي الله عليه

وسلم **«وما أرسلناك الا رحمة للعالمين»**[الآية (١٠٧) الانبياء] – فحتي لو معه علوم الالهام وليس معه رحمة رسول الله صلي الله عليه وسلم لا ينفع لأنه كان الأساس عنده الرحمة فالتي تأتي إليه لتسأله يقول لها **«اجلسي يا أمة الله في أي ناحية من نواحي الطريق أجلس إليك»** فلا يرسلها إلي السكرتير لتأخذ موعدا ولا يقول لها لماذا تأتيني في وقت غير مناسب؟ أو لماذا حضرت اليوم؟ وقد يكون يوم إجازة أو راحة هكذا هؤلاء القوم علي هذه الشاكلة فيقول أبو العباس المرسي الذي ورث هذا الحال لأولاده: يا أبنائي لا تمنعوا عنا أحداً يقصدنا بليل أو نهار حتي الذي يأتي في نصف الليل أيقظوني حتي أخرج له فإن المريد يأتي بشوقه فإذا رُدّ انطفأ شوقه فصاحب الحال النبوي لا يقول لماذا تأتيني وقت النوم وأنت تعلم أنني مرهق ومتعب؟ لأنه علي الحال المحمدي الكامل هذه هي الموازين التي نزن أنفسنا بها ميزان أحوال وأخلاق وأداب رسول الله صلي الله عليه وسلم مع الخلق أجمعين حتي عندما دخل رجل مسجد رسول الله صلي الله عليه وسلم وتبوّل فيه وخرج الصحابة مسرعين لطرد الرجل لأنه تبول في المسجد فقال لهم: لا تقطعوا علي الرجل بَوْلته وعندما انتهي قال احضروا ماء وصبّوه موضع البول – ليطهره – وقال للرجل بصوت خافت «إن هذه المساجد لا تصلح لشئ مما صنعت» انظروا إلي الجمال والكمال والرحمة المحمدية من رسول الله صلي الله عليه وسلم وذات يوم كان جالساً صلي الله عليه وسلم في مجلس مثل مجلسكم هذا وقاموا للصلاة وخرج من رجل ريح وكان الرجل في حرج فقال صلي الله عليه وسلم **«من أكل لحم جذور فليتوضأ»** أي من أكل لحم جمل فليتوضأ فقاموا جميعاً ليتوضئوا حتي لا يحرج هذا الرجل وهذه ليست قاعدة شرعية لمن أكل لحم الجمل لكنها حالة خاصة حتي يستر صلوات الله وسلامه عليه هذا الرجل لأنه كان الرحمة المهداة والنعمة

المسداة لجميع خلق الله صلي الله عليه وسلم.

ونفس الأمر حدث مع الرجل الذي كان جالساً في المسجد ودخلت امرأة تسأله في مسألة والعلماء العاملين لهم هيبة تقشعر منها الأبدان فعندما رأته ارتعدت فرائسها من هيبته فلم تملك نفسها فخرج منها ريح بصوت عال فتظاهر أنه أصم حتي لا يجرح أحاسيسها أو يحرجها فتظاهر أنه أصم وكانوا غير منافقين فكيف يكون أصم اليوم ويسمع غدا فظل علي هذه الحالة طوال عمره حتي لا يتخلق بخلق من أخلاق المنافقين فسمي حاتم الأصم رضي الله عنه وأرضاه هؤلاء يا إخواني العلماء الذين ساروا علي نهج رسول الله صلي الله عليه وسلم.

ميـــزان الصـــدق

إذا كنت سأخدع الناس كلهم فيجب ألا أخدع نفسي بل لا بد أن أصدق مع نفسي وأزنها بميزان رسول الله صلي الله عليه وسلم كما يقول الله عز وجل **«قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني»** وأنظر إلي أي درجة وصلت في هذه المتابعة؟ ومتي أعرف أني وصلت إلي كمال المتابعة؟ إذا دخلت في أهل العناية التي عمّت هذه الآية الذين هم **[إن الله اصطفي آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران علي العالمين»** [الآية (٣٣) ال عمران] هؤلاء الأنبياء فماذا لنا؟ **«الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس»** [الآية (٧٥) الحج] فإذا وصلت إلي مقامات الاصطفاء وأحسست بنوع من أنواع الانعام والاكرام الذي ينعم الله به علي أحبابه وعلي أوليائه فأعرف أنني سائر علي المتابعة الصحيحة لكن لو أنني أسير منذ خمسين سنة أو أكثر ولم أشعر في نفسي أو بداخلي بشئ من الذي أسمعه عن الصالحين فهذا يدل علي أن متابعتي غير

مضبوطة فأفتّش في نفسي وأصلح متابعتي ولو صلحت متابعتي سيصدر عليّ قرار الاصطفاء وينعموا عليّ وأدخل في الذين أنعم الله عليهم والانعام يكون بحالة باطنية أو منزلة روحانية أو بدرجة ربانية أو بعناية الهية أحسّ بها في نفسي ويحسّ بها أصحابي فإذا لم أصل إلي هذه الحالة لماذا أرضي أو أسكن أو اسكت؟ بل أراجع نفسي وأردها إلي متابعة رسول الله صلي الله عليه وسلم.

نسأل الله عز وجل أن يرزقنا كمال اتباعه ظاهراً وباطناً في سلوكنا وفي حركاتنا وفي سكناتنا وفي سيرنا إلي الله عز وجل - اللهم ارزقنا حسن متابعته وحبّبنا في أوصافه المحمدية وارزقنا في حياتنا هذه الأخلاق النورانية واجعلنا معه يوم لقائك يا أرحم الراحمين وصلي الله علي سيدنا محمد وعلي آله وصحبه وسلم.



الفصــل الرابــع

من أحــوال العـــارفين

- أذواق الصوفية في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية
- الفارق بين الكشف الرباني والكشف الشيطاني والنفساني
- السلب بعد العطاء
- الأدب مع العارفين

أذواق الصوفية فى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية

إن الصوفية لهم أذواق في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية. هذه الأذواق أخذوها بقلوبهم وأرواحهم لتساعدهم وتعينهم علي السير والسلوك إلي الله عز وجل وإن كانوا يقرّون بالمعني الظاهر بل ويعملون به لكن المعني الظاهر وحده لا يكفي هؤلاء المشتاقين - فالمعني الباطن يزيد قواهم الروحانية شوقاً وهياماً وتحناناً إلي الذات العلية فمثلاً قول الله عز وجل **«واذكر ربك إذا نسيت»** [الآية (٢٤) الكهف] المعني الظاهر في هذه الآية لأهل الغفلة الذين ينسون ذكر الله أن نقول لهم عندما تنسوا اذكروا الله عز وجل. لكن عند الصوفية الغفلة عن الله طرفة عين أو أقل تستوجب قطع عنق صاحبها في نفسه وهذا ما عبر عنه ابن الفارض رضي الله عنه في قوله:

وإن خطرت لي في سواك إرادة علي خاطري نَفَساً حكمت بردتي.

فقد حكم علي نفسه هو ولم يعمم الحكم علي غيره كي يسوق نفسه إلي الله عز وجل ولذلك قالوا هل ينفع الذكر مع وجود الغفلة؟

والاجابة : لا، لقول النبي صلي الله عليه وسلم **«لا يقبل الله دعاءاً من قلب لاهي»** اذن كيف اذكر الذكر الحقيقي الذي يَذْكرني به الله؟

في الحقيقة لا ينفع ذكر حقيقي لله يقرب إلي الله ويمحق الحُجب التي بيني وبين الله حتي تقع عين قلبي علي أنوار الله الا إذا نسيت كل غير ومحَوْت كل ما سوي الله وذكرت الله في حالة غيبة تامة عن جميع ما سوي الله وفي ذلك يقول الامام أبو العزائم رضي الله عنه :

اذكر الله إن نسيت سواه قل بقلب في الذكر يا الله.

كانت هذه المحاضرة بترعة ناصر مركز اسنا محافظة قنا بديوان أولاد الحاج بدوي وأمين وأحمد النابي وذلك بعد صلاة العشاء يوم الاثنين غرة صفر ١٤١٧ الموافق ١٧ يونية ١٩٩٦م أجابة علي أسئلة الحاضرين

فهذا هو الذكر الذي يقرب والذكر الذي يوصل والذكر الذي يقول فيه الامام أبو العزائم رضي الله عنه وأرضاه:

فذكر فؤادي رؤية الوجه ظاهراً   وباســم الذي أهواه ذكر لساني

فذكر الفؤاد شهود علي الدوام ولذلك فإن سيدي أحمد البدوي رضي الله عنه وأرضاه كان يقول: ذكر اللسان شقشقة وهذا حق ولكن للواصلين لكن سيدي ابن عطاء الله السكندري يقول للمبتدئين: «اذكر الله ولو مع وجود غفلة فرب ذكر مع وجود غفلة ينقلك إلي ذكر مع حضور ورب ذكر مع حضور ينقلك إلي ذكر في شهود المذكور عز وجل» فكل واحد له حاله. فالمبتدئ يقول له إذكر ولو علي غفلة والذي سلك وسار في طريق القوم يقولون له الذكر من هنا (القلب) وليس من اللسان. فهذا ياإخواني نموذج لأذواق الصوفية في القرآن فهم يأخذون مشهدا في الآيات يقوي عزائمهم ويُعْلي أشواقهم كي يزيدوا في القرب من الله عز وجل والاقبال عليه سبحانه وتعالي والآيات تساعدهم علي ذلك وليس هناك تنافي والأمثلة كثيرة في القرآن في هذه الآيات وهناك مثال آخر وهو قول الله تعالي **«أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله علي علم وختم علي سمعه وقلبه وجعل علي بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون»** [الآية (٢٣) الجاثية] فالهوي كما قال النبي صلي الله عليه وسلم **«شر إله يعبد في الأرض هو الهوي»** فالذي يعبد هواه أي يتبعه ويسعي وهمه نيل شهواته ونوال حظوظه وملذاته فقد ضل عن طريق الحق وهذا يختم الله علي قلبه فلا يسمع الحق ولا يبصر الحق ولا ينطق بالحق وهذا هو التفسير الظاهر وهو حق لكن الصوفية لهم مشهد ثاني فيقولون هل رأيت الذي جعل الله عز وجل هو هواه أي حُبّه المسيطر علي قلبه فاتخذ إلهه وهو الله عز وجل هواه وأصبح مشغولاً بالكلية

بالله عز وجل وأصبح كما يقول القائل :

قد كانت لي أهواء مُفرّقة　　فاستجمعت مُذْرأتك العين أهوائي.

تركتُ للناس دنياهم ودينهم　　شُغلا بذكرك يا دينى ودنيائى

«وأضله الله على علم» أضله الله يعني أبعده عن الشغل بقلبه بالدنيا مع علمه بها واجتهاده في تحصيلها شغلا بالله عز وجل. وختم الله علي قلبه فأصبح لا يتلقي الا من الله وعلي سمعه فأصبح لا يميل الا لسماع كلام الله أو ما يقرّب إلي حضرة الله وجعل علي بصره إذا نظر إلي الدنيا غشاوة فلا تغويه زينتها ولا تغرّه فتنتها لأنه لا ينظر إلي شئ منها إلا مُعْتبرا فهذا مشهد يأخذه الصوفية ليقوي شوقهم في القرب من الله عز وجل ويزيد عزمهم في مراحل السير والسلوك إلي ملك الملوك عز وجل. وهكذا يا اخواني أذواق الصوفية في مثل هذه الايات القرآنية ومثلها كذلك الأحاديث النبوية ومثال ذلك قوله صلي الله عليه وسلم **«صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته»** فالحديث معناه الظاهر واضح وكلنا مؤمنين به ومنه أخذ الحكم الشرعي في تحديد ميعاد بدء صيام شهر رمضان وتحديد ميعاد عيد الفطر وأن ذلك لا بد أن يتم عن طريق الرؤية البصرية ومع تقدم العلم في زمننا قد نأخذ بالرؤية العلمية معها لكن الرؤية العلمية بمفردها لا تُغني عن الرؤية البصرية لكن الصوفية يستشفّون من الحديث معني أخر يتطابق مع همتهم العالية فيجعلون الغاية من الصيام هي رؤية وجه الله عز وجل فيكون المعني صوموا من أجل رؤيته فصيامك ليس من أجل الجنة أو طلباً لألوان النعيم بها وإنما رغبة في رؤية وجه الله عز وجل وهذه أعلي درجة من درجات الصيام والذي يصوم لأجل رؤية وجه الله عز وجل لا يفطر أبداً إلا إذا تحقق مُراده وبلغ أمنيته وفي ذلك يقول الامام أبو العزائم رضي الله عنه:

وما صام إلا عن سوي ما يحبه   كذلك عبد الذات في القرب طامع

ويؤكد ذلك الحديث الآخر الذي يقول فيه صلي الله عليه وسلم **«للصائم فرحتان فرحة عند فطره والثانية عند لقاء ربه»** وهذه هي الفرحة العظمي هذه بعض المعاني التي يأخذها الصوفية من هذه الأحاديث وهذه الآيات لتحثهم وتقويهم علي طاعة الله عز وجل ولكنهم لا ينكرون المعني الظاهر فالذي ينكر المعني الظاهر هم الباطنيون الذين يقولون ليس هناك تأويل للقرآن غير التأويل الباطني وهؤلاء ليسوا من الصوفية حيث أنهم من غلاة الشيعة وليس للصوفية شأن بهم فنحن نؤمن بالظاهر ونعمل به ولكن الأرواح تحتاج إلي زاد أعظم يعينها علي السير إلي الكريم الفتاح عز وجل فالذي يطلب الجنة تحقيق مطلبه سهل كالرجل الذي ذهب إلي النبي صلي الله عليه وسلم وطلب ذلك فقال له صلي الله عليه وسلم **« صلي الصلوات الخمس الا أن تتطوع وصم شهر رمضان الا أن تتطوع فقال له لا أزيد علي ما ذكرت شيئاً فقال صلي الله عليه وسلم أفلح إن صدق »** أي وفّي بذلك تدخل الجنة لكن الذي يطلب نعيم رؤية وجه الله هل يكفيه هذا العمل؟ لا، لأنه مطلبه أعظم، وغايته أسمي فيخاطب بقول الله عز وجل: **«وجاهدوا في الله حق جهاده»** [الآية (٧٨) الحج] لماذا؟ كي يدخل في قوله سبحانه «**«هو إجتباكم»** أي يحصل علي مقام الاجتباء. كيف يجاهد؟ يأخذ من كتاب الله ومن سنة رسول الله صلي الله عليه وسلم ما يعينه علي هذه الأحوال

الفارق بين الكشف الرباني والكشف الشيطاني والنفساني

سؤال : أحيانا يحار المرء إذا أعطي له الكشف هل هو كشف شيطاني أم هو كشف مَنّ به الله عليه مع وضعنا في الاعتبار ما تعلمناه في ذلك من

أهل الفضل من أن الكشف بداية ما يُمنح المريد أو السالك لكي يشق طريقه فأصبحنا لا ندري لمن يظهر عليه ذلك أنه مُلْهم أو هذا كشف شيطاني أو كشف رباني؟

الاجابة : نحن في كل هذه الأمور ملتزمين بقول الله عز وجل **«لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً»** [الآية (٢١) الأحزاب] فالميزان الذي نزن به كُمّل الرجال هو رسول الله لأن الذي نعرفه أنه كلما زاد الرجل في التمكين كلما زاد في كمال الاتباع لسيد الأولين والآخرين. حتي يصير كما يقولون علي قَدَمه صلي الله عليه وسلم حذو النعل بالنعل كلما نقل رسول الله صلي الله عليه وسلم قَدَماً في عالم المقامات كان وراءه. وهذه هي الأسوة الحسنة فسيدنا رسول الله صلي الله عليه وسلم كان يعلم أحوال المنافقين معرفة يقينية لكنه كان يقول لهم ولأصحابه: **«لنا الظاهر والله يتولي السرائر»** وأنتم تعلمون علم اليقين أنه عندما رجع من غزوة تبوك وذهب إليه المنافقون معتذرين قبل عذرهم وعندما جاء الصادقون ولم يبدوا عذراً واعترفوا ردهم إلى الله عز وجل وقال: أما هؤلاء فقد صدقوا فأمرهم إلي الله عز وجل وما سمعنا أنه دخل علي رسول الله صلي الله عليه وسلم رجل وفضحه أو كشف ستره مع أنه صلي الله عليه وسلم يعلم خفيّات الضمائر ويعلم المستور ويعلم خفايا القلوب صلوات الله وسلامه عليه. فصاحب الكشف إن كان كشفه رباني فكل ما يُكاشف به اخوانه هي البشائر التي يبشّرهم ربهم بها وهذه تحدث في المستقبل وصاحب الكشف الشيطاني لا يستطيع أن يأتي بها قط فصاحب الكشف الشيطاني معه شيطان يعرّفه بالذي مضي. فلان أمس عمل كذا لأنه رآه وفلان خّبأ هذا الشئ في المكان الفلاني أو يقول لمن وقف علي بابه قبل

استئذانه ادخل يا فلان فيقول إن الشيخ فلان ولي كبير لقد عرف اسمي وقال لي ادخل يا فلان من غير أن يراني وهذه أول مرة أذهب إليه ولا يدري أن الشيطان يوشوش له في أذنه لكن لا يقدر صاحب الكشف الشيطاني أن يتنّبأ بشئ يقع في المستقبل لأن ربنا قال فيه **«عالم الغيب فلا يظهر علي غيبه أحداً إلا من ارتضي»** [الآيتان (٢٦، ٢٧) الجن] فمثال الكشف الرباني كمثل الشيخ أبي الحسن الشاذلي عندما أخذ يبحث عن قطب العصر وحضر إلي مصر وذهب إلي الشام والعراق ماشيا علي الأقدام وهناك تقابل مع سيدي أبي الفتح الواسطي فقال له أنت تبحث عن القطب هنا والقطب عندكم في بلاد المغرب لماذا يسعي باحثاً عن القطب؟ أما كان في العبادات ما يكفيه؟! كلا، لأنه يعلم علم اليقين أنه لا وصول إلي الله عز وجل إلا بعد الاجتماع علي العارف الممنوح وفي ذلك يقول الامام ابو العزائم رضي الله عنه:

من يعرف العبد يعرف ربّه فضلاً   من يجهل العبدُ يُبلي ثّم بالصدّ

فلما ذهب عند الشيخ عبد السلام بن بشيش رضي الله عنه وأرضاه قال له علي الفور أول ما وقعت عينه عليه، وصلت يا أبا الحسن وصلت يا خليفة الزمان فقد عرفه الله عز وجل أن هذا هو الخليفة الذي سيقوم بأمر الدعوة إلي الله عز وجل من بعده وكان في قمة الجبل فقال له إنزل فاغتسل من العين التي بأسفل الجبل ثم ائتني فنزل واغتسل ثم صعد إليه فإذا به يقول له: انزل واغتسل فنزل واغتسل ثانية، ثم صعد فقال له مرة ثالثة: إنزل واغتسل قال ففهمت أنه يقصد بالغسل شئ آخر غير معناه الظاهر يقصد اغسل نفسك من العلوم التي حصّلتها بآلات التحصيل الظاهرة لتنال العلوم الوهبية فلا يصح لأحد أن يكتب علي صفحة مكتوبة بل لابد أن تكون الصفحة (صفحة القلب) بيضاء ليخُطّوا بأنامل القدرة ما شاء الله عز وجل

أن يكتبه فيها وهذا ما يظهر في قول الله عز وجل **«يمحوا الله ما يشاء ويثبت»** [الآية (٣٩) الرعد] فلا بد من المحو أولاً حتي يتحقق الاثبات وبعد ما مكث معه فترة استدعاه ذات مرة وأخبره أنه سيلاقي الله عز وجل ثم حدّثه بكل ما سيجري عليه إلي أن يلقي الله عز وجل فأخبره أنه سيتعرض بعد موته لفتنة من قبل ابن البراء قاضي قضاة تونس ولكن الله عز وجل سينصره عليه وأنبأه بأنه سيذهب إلي الديار المصرية ويسكن الاسكندرية وهناك سيعلو شأنه ويظهر أمره وعرفه بمن سيجتمع عليه من المريدين الصادقين وغير ذلك من الأمور التي حدثت كلها كما أخبر بها رضي الله عنه وقد تكرر ذلك من الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه مع تلميذه أبي العباس المرسي رضي الله عنه **«ذرية بعضها من بعض»** [الآية (٣٤) ال عمران] ففي السنة الأخيرة من حياته سأله الشيخ عز الدين بن عبد السلام رضي الله عنه وأرضاه هل ستحج هذا العام؟ فأجابه رضي الله عنه: سأحج هذا العام بالنيابة والعارفون كلامهم حكم

خُذْ ما صفا لك من إشـــارة عارف فالعارفون كلامهم يشفي السّقام

فلا يُلقون القول جزافاً أبداً لكن ربما لا تفك الكلمة الا بعد سنين مثل سيدنا أبي حنيفة رضي الله عنه وأرضاه عندما ذهب إليه أبو يوسف تلميذه ليتربي علي يديه وكان وحيد أمه، وأبوه قد توفي وهو صغير فكانت تذهب به إلي النجار فيترك النجار ويهرب ويذهب إلي درس أبي حنيفة وعندما يخبرها النجار كانت تذهب إلي الدرس فتأخذه منه بعد أن تعنّفه وتوبخ الامام أبي حنيفة رضي الله عنه فلما اكثرت من ذلك طلب منها الامام أبو حنيفة أن تتركه ويتعهده برعايته وكفالته ولكنها كانت تصرّ علي رأيها وتقول له إنه فقير ولابد له من صنعة يتكسب منها قوته فقال رضي الله عنه إنه يقول: أنا

سأكل الفالوذج «نوع من الحلوي الراقي» المعجون بدهن السمسم علي مائدة الخلفاء. وعندما حان موعد انتقال الامام أبي حنيفة إلي الله عز وجل قال له أبو يوسف أوصني فوصاه وصية في غاية الغرابة قال له يا أبا يوسف «إن للوطواط منياً كمني الرجال» هذه هي الوصية.

نعم، سبحان الله! إن رجال الله لهم اسرار علمها لهم الكبير المتعال عز وجل ومات أبو حنيفة وانقضي دهر

لأهـــل الله أســــرار خفيـــة وأحـــوال تــــري فيـــهم عليه

وعلم غامـــض يعطـــي بفضـــل لأنهـــم تهنـــوا بالمعيـــــة

ودخل هارون الرشيد الغرفة الخاصة بالسيدة زبيدة زوجته فوجد علي السرير منيّا فأقام الدنيا ولم يقعدها وغضب وزمجر وهدّد وتوعد فاحتارت هي ماذا تفعل فأرسلت للعلماء تطلب تفسيراً لهذا الوضع فلم تجد حلاً فأمرت بالنداء في البلاد ووعدت بجائزة ثمينة لمن يأتي بالحلّ فسمع أبو يوسف بالأمر وتذكر وصية شيخه وقال أنا عندي رأي في هذه المشكلة.
– انظر إلي بصيرة الصالحين – **«قل هذه سبيل أدعوا إلي الله علي بصيرة أنا ومن اتبعني»** [الآية (١٠٨) يوسف] فقال لهم أدخلوني هذه الغرفة وأحضروا لي سلّما وكانوا دائما يصنعون في الغرف ناروزة (فتحة بسقفها) فنظر إلي أعلي فوجد عُشّا فيه وطواط. فأحضر الوطواط وقال لهم: (إن للوطواط منيّا كمني الرجال) فانهالت عليه العطايا من الخليفة وزوجته وقرّبه هارون الرشيد وجعله العالم الخاص به وفي يوم دعاه إلي المائدة وبعد فراغه من تناول الطعام، قدّم له صِنْفا من الحلوي؟ وقال له: يا أبا يوسف كل من هذا الصنف كثيرا فإنا لا نصنعه إلا نادرا.

فقال له ما هذا الصنف؟ فقال: هذا الفالوزج بدُهن السُّمسم. فأخذ يبكي

فقال ماذا يبكيك؟ فقال: تذكرت الامام أبا حنيفة رضي الله عنه وأرضاه. فهذا يسمي بالكشف الرباني والشيطان ليس له إليه سبيل والشيخ أبو الحسن وهو متوجه إلي الحج عندما بلغ قنا قال للخادم: احضر معك فأس ومقطف. فقال له: ولم؟ فقال: ربما يموت أحدنا فندفنه، فلم يقتنع بهذه الاجابة وكرّر عليه القول فقال في حُميثري سوف تري.

وفي حُميثري جمع الاخوان في الليلة الموعودة وقال لهم الخليفة عنّي عليكم أبو العباس وهو الذي سيذهب بكم إلي الحج هذا العام وسترجعوا إن شاء الله سالمين فاسمعوا له وأطيعوا، ثم صرفهم وانفرد بأبي العباس، وأخذ يحدثه بكل شئ سيحدث له إلي أن يلقي الله عز وجلّ.

السلب بعد العطاء

السؤال الثاني: البعض يردد ما يسمي بالسلب بأن فلان سَلَب فلان والمجذوبة الفلانية سَلَبتَ الشيخ فلان .. أو ... أو... فالأمر الذي يقف أمامه الانسان حائراً أيكون من له ولاية ومعرفة شأن يصل إلي حد السرقة. هذا أمرّ نود تبيان حقيقته؟

الاجابة : الله كريم وحليم وعظيم ولا يسلب شيئاً أعطاه لأحد من خلقه إلاّ إذا نازع الربوبية وعارض الألوهية ولكن ما دام العبد محتفظا بآداب العبودية فلا يسلبه الله عز وجل شيئاً بل يزيده من فضله أما ما حكاه الله عن بلعام بن باعوراء. فلم سلبه الله عز وجل؟

عندما دعا علي سيدنا موسي غضب الله عز وجل وقال له: أتدعوا علي حبيبي وخليلي وصفيّ؟ وقد كان الله وعده بإجابة دعاءه ولكنه جهل شرط

ذلك وهو قوله صلي الله عليه وسلم : **«إن الله يستجيب لأحدكم مالم يدع بإثم أو قطيعة رحم»** مع أنه كان عالما وأتباعه سبعين ألفاً بل وكان من أهل الكشف لكن نفسه غلبته. فلما ظهر موسي بعد نجاته ومن معه من فرعون وقومه حسده علي ذلك الظهور حيث كان يتمناه لنفسه ولا يعرف أن أسرار الله عز وجلّ لا تُعلل.

فنبي الله موسي تربي في بيت فرعون. وموسي السامري الذي غضب عليه الله تربي في الغابة والذي قام بتربيته جبريل وكان يحضر له الغزالة ويمسكها بيده حتي يتم رضاعه منها.

فموسي الذي رباه جبريل كافـرٌ ... وموسي الذي ربّاه فرعون مرسلُ

فأسرار الله غريبة وعجيبة يا اخواني. فما دام الإنسان حافظا لمقام العبودية وينسب الفضل للذات العليه لا يحرمه الله من عطاء أعطاه له بل يزيده من فضله ومن جوده وكرمه عز وجلّ. أما ما يدّعيه بعض المشايخ من أن مريده هذا لو تركه وذهب إلي غيره من المشايخ فإنه سيسلب الذي عنده فهذا إدعاء ووهم أصحاب النفوس ولا يتفوّه به رجال دخلوا حضره الملك القدوس عز وجلّ. فالرجال الذين دخلوا الحضرة وأخذوا التفويض من رسول الله صلي الله عليه وسلم بدلالة الخلق علي الله يعلمون أنهم يُربّون ما يسلمه لهم رسول الله صلي الله عليه وسلم. ولا يستطيع واحد منهم أن يدخل واحدا زيادة في قائمة الفصل الذي يدرّس له لأن الذي يكتب قائمة الفصل هو الناظر الأعظم صلي الله عليه وسلم. فعندما اختار سيدي أحمد البدوي لهذه المهمة جاءه مناما وهو بمكة وقال له:

يا أحمد اذهب إلي طنتدا فإن لك بها شأنا وستربّي بها رجالاً عبد العال وعبد الرحمن وعبد المجيد وفلان وفلان.... وكذا قال لسيدي أبي الحسن وهو

ببلاد المغرب عندما أمره بالتوجه إلي مصر يا أبا الحسن اذهب الي مصر فإنك ستربي بها أربعين صدّيقاً. فلان وفلان و....قال له : يا سيدي الجو حار والطريق ليس به ماء فقال له إذا أقمناك أعناك. فمشي من تونس إلي الاسكندرية هو والذين معه وسحابة تسير فوقهم تظللهم وكلما نفذ الماء امطرت حتي يشربوا ويغتسلوا ويملؤا أسقيتهم وأوعيتهم لماذا؟ لأنه جاء بالأمر فمثل هؤلاء لو ذهب اليه رجل يطلب مبايعته ماذا كان يفعل؟ بعضهم كسيدي أبى العباس المرسي كان يقول لمن يطلب أخذ العهد عليه انتظر حتي أنظر في أمرك فيُطرق إلي الأرض ثم يرفع رأسه ويقول للبعض نظرت الي اللوح المحفوظ فوجدتك عندي وأحياناً يقول للبعض الآخر نظرت الي اللوح المحفوظ فلم أجدك عندي.

وهذا الشيخ أبو الفتح الواسطي لما ذهب اليه رجل وقال له أريد أن أخذ العهد علي يديك.

نظر إليه برهة ثم قال له أنت مقام تربيتك في قنا بمصر وأستاذك هو الشيخ عبد الرحيم القنائي فلما ذهب إلي قنا وقابل سيدي عبد الرحيم القنائي قال هل: هل عرفت رسول الله المعرفة الحقيقية؟

قال لا. فقال له: عندنا لا يبدأ المريد السير الي الله عز وجلّ حتي يعرف رسول الله صلي الله عليه وسلم. المعرفة الحقيقية. فقال ماذا أفعل؟ فقال له: إذهب إلي بيت المقدس وستري هناك حقيقة رسول الله صلي الله عليه وسلم. فذهب إلي هناك ونام فرأي رسول الله صلي الله عليه وسلم رآه علي حقيقته النورانية فقد أخذ يمتد ويتسع حتي رأي الكون كله من العرش الي الفرش مطويّا في رسول الله صلي الله عليه وسلم، والشيخ أبو السعود الكائن ضريحه بمصر جاءه أحد المريدين وطلب منه أن يتعهده بتربيته فقال له: أنت

لست مـريداً لي، ولكن شيـخك مـازال ببلاد المغرب ولم يأت بعد، فـإن شئت تنتظر عندي حتي يحضر شيخك، فوافق .. فانظر إلي هؤلاء الذين لم يكونوا يحرصون علي جلب المريدين وكثرتهم لأنهم يرون في ذلك مسئولية كبيرة وعبء ثقيل سيحاسبون عليه وإذلك فالامام أبو العزائم رضي الله عنه وأرضاه كان يقول:

لولا الذين تحبّهم لفررت من ... كل الخلائق سائحا فرّاراً

لكن قلوب العاشقين دعت إلي ... أنّي أقيم بدارهم مختارا

قلبي لديك وبالبرلس هيكلي ... أوصل اليك الصبَّ أعلي منارا

فأهل الحقيقة يهربون من دعوي التمشيخ ولا يلتفتون الي الناس بالكلية ولسان حالهم تعبّر عنه السيدة رابعة عندما تقول:

راحتي يا اخوتي في خلوتي ... وحبيبي دائما في حضرتي

لم أجد لي عن هواه عوِضا ... وهواه في البرايا محنتي

حيثما كنت أشاهد حُسْنه ... فهو محرابي إليه قبلتي

فهم يطلبون صفاء الوقت مع الله عز وجل، ويضنّون بالنفس الواحد ينفقونه في غير مرضاته ولا يقومون بهذا الأمر إلا تنفيذاً لأوامر الله عز وجلّ. لا رغبة في عدد أو كثرة حولهم ولا طلبا لعزّ فاني بإقبال الخلق عليهم لأن الذي ينظر إلي هذه الأشياء هم القوم الذين يريدون الظهور ويقعون تحت فتنة الخلق - فهذا الرجل جلس مع الشيخ أبو السعود خمس عشرة سنة وذات يوم قال الشيخ أبو السعود أين فلان، فحضر فقال له: شيخك سيحضر عصر اليوم عند مقياس النيل بالروضة وكانوا يأتون من المغرب إلي الاسكندرية بالبحر ثم يركبون في النيل الي الروضة بالقاهرة فذهب إلي

الروضة وقت العصر لاستقبال شيخه. وعندما سلّم عليه إذا بالشيخ يقول له جزي الله أخي أبي السعود عني خيرا إذْ حفظك لي طوال تلك المدة. فبعد خمس عشرة سنة يعود المريد الي شيخه قارن هذا بما يفعله أدعياء المشيخة في زماننا والذين يحاولون خطف المريدين من بعضهم عن طريق إغرائهم بالخلافة والمناصب أو بتبغيضهم في مشايخهم، وكل ذلك من أجل الدنيا وزهوها وغرورها وفتنها وهؤلاء وأمثالهم ليسوا علي نهج العارفين ولا طريق الصالحين وهؤلاء الذين يهددون المريدين بأن يقولون لهم إن تركتنا سلبناك ما معك في الحال أو كذا وكذا. ويردد اتباعهم كذلك نفس الكلام لكنا نقول لهم وهل اولياء الله عز وجل يؤذون أحدا؟

أولياء الله الذين يقول فيهم الامام عليّ رضي الله عنه وأرضاه: « أنفسهم عفيفة وحاجاتهم خفيفة. الناس منهم في راحة وأنفسهم منهم في عناء. شرورهم مأمونة وأنوارهم مخزونة وعلومهم مصونة وليس فيهم شر لأحد» واذا حدث أن رجلاً أوذي من الله بسببهم فربما يرجع ذلك إلي أنه قد بالغ في الإيذاء لهم والله عز وجلّ يغار علي أحبابه فانتقم الله منه غيرة لهم أو أعطي له لفت نظر حتي لا يتعرض لهم بالإيذاء مرة ثانية. لكن هل هناك رجل من الصالحين يطلب لرجل من المسلمين ضررا؟ بل هل يجوز لرجل من عامة المسلمين أن يطلب إيذاءا لمسلم من عامة المسلمين؟ لا اذن السلب أو الضرر الذي يدّعيه هؤلاء الأدعياء لمن يتركهم ويذهب إلي غيرهم ليس موجوداً إلا في نفوس هؤلاء الأدعياء لكن السلب الذي يحدث من الله لا يحدث إلا لمن يتجاوز حدود الأدب مع حضرة الله وينسي مقام العبودية ويزاحم في مقام الربوبية ويريد من الناس ان يتخذونه إلها من دون الله عز وجل. لكن ما دام الانسان يحفظ أدب العبودية يحفظه الحفيظ عز وجل

بحفظه ولا يستطيع أحد من الجنّ أو الانس سلبه لأن السلب والعطاء بيد الله عز وجلّ. ماذا يعطي الشيخ للمريدين؟ الشيخ يطلب من الله أن يعطي المريد فتحا أو توفيقا أو علما إلهاميا أو غيره من أنوا ع الفضل الإلهي والله يستجيب له فيعطيه، مَنَ الذي يتفضل بالعطاء؟ الله عز وجل، ولذلك فالشيخ الذي أدخل ابنه الخلوة وأعطي له الأوراد ليحدث له الفتح، فلم يُفتح عليه فأعطي له أورادا ثانية: وثالثة وأيضا لم يحدث له فتح. ففي النهاية قال له: لو كان الفتح بيدي لكُنت أول مريد عندي في الطريق لكن الفتح بيد الله يؤتيه من يشاء. فليس هناك رجل من الصالحين يستطيع أن يفتح علي ابنه أو علي زوجته. إلاّ بإذن من الله عز وجل **«وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان رَبّكَ نسبياً»**[الآية (٦٤) مريم] فالصالحون الحقيقيون لا يتحركون إلاّ بإذن من الله عز وجل. حتي لو أن أحدا من المريدين هو الذي يعمر الساحة بالخيرات والبركات ورجل فقير ليس معه شئ لا يستطيع الشيخ أن يخصّ هذا بالنفحات الربانية دون الآخر لغناه. لأن الذي يُحضر شيئا يحضره لله عز وجل وينتظر الفضل من الله فهو لم يأت بهذا الشئ من أجل الفتح. وإنما ابتغاء وجه الله عز وجل والفتح من الله وبيد الله عز وجل يؤتيه من يشاء عز وجلّ.

الأدب مع العارفــــين

سؤال : في آداب الزيارة لأهل الفضل أحياء ومنتقلين فكثيراً ما نشاهد من الاخوان أو المحبين من يترك بلاده لزيارة ولي أو صالح ولكن الأمر يحتاج كما قال الامام السيد: محمد ماضي أبو العزائم إلي تصحيح الوجهة أو القول حسب التعبير الذي قدمه فضيلته في العبادة إلي الله وإذا ما

اعتبرنا زيارة الولي هي قرب من الله ووصل بالله فيجب أن تراعي آداب الزيارة للولي أو الصالح بحيث لا أكون قاصداً أن استكشف ما عنده أو اكشف مصادره أو ماالديه من كرامات أو أقارن بين هذا وبين ذاك فإذا ما قصدت في زيارتي فكيف أحفظ نفسي وكيف أرعي آداب المحبة في التواجد مع الولي وكيف أحفظ نفسي عند عودتي فإنا نجد الكثيرين يتركون الرجل الصالح وقد لعبت بهم خواطرهم وهواجسهم ويتعرضون له بالانتقاد والاختبار وهم يتناولونه في طريقهم بحيث أنهم يفتقدون ما قد يكون حصل منهم أساساً في هذه الزيارة إذا كانت وجهتهم صحيحة فإذا ما كانت الغيبة لغير الولي كالاخ في الله أو في الدين محرمة وهي أكل للحمه فاني اتصور أن أكل لحوم الأولياء المسمومة أولي بأن ترعي فنرجوا أن تتكرم سيادتكم بالإجابة.

الاجابة : أما الأدب في صحبة الصالحين رضي الله عنهم وأرضاهم فهو الأدب الذي ذكره الله عز وجل في قرآنه مع أصحاب رسول الله صلي الله عليه وسلم لحضرته البهية صلوات الله وسلامه عليه ومجمله بإختصار أنني اتخذ الشيخ إمّا أخاً أكبر أو والداً رؤوفاً رحيماً وأقوم له بما يجب عليّ أن أقوم به نحو أخي الأكبر أو نحو والدي مع حفظ الميزان الذي وضعه الصوفية وهو قولهم «لا تتخذه صنماً تعبده من دون الله واتخذه وسيلة ليقربك إلي حضرة الله عز وجل» ومن الأدب في ذلك أيضاً قولهم «إذا جالست العالم فاحفظ لسانك لتنتفع بعلومه وإذا جالست العارف فاحفظ قلبك ليَّرد عليك عوارفه ولطائفه وإذا جالست العالم العارف فاحفظ قلبك ولسانك. وهذه هي جملة الآداب الواردة باختصار وقد انتشر في هذا الباب علي يد الادعياء أشياء لم أسمع عنها ولم أرها في معاملة الصالحين الذين

عاصرناهم ومنها أن للإذن علي المشايخ أطوار وأحوال فالذي يذهب لزيارة الشيخ يستأذن من فلان وهو عن فلان والآخر عن فلان إلي أن يدخل علي الشيخ فهذا ليس عندنا فقد كان سيدي أبو العباس المرسي رضي الله عنه وأرضاه يقول:

«لا تمنعوا المريدين من الدخول علينا في ليل أو نهار فإن المريد يأتي وله شوق فإذا رددتموه أطفأتم نار شوقه» والذي نعرفه والذي نعلمه وأنا علي قدري ولست من العارفين لكني أحب الصالحين عندما قال لي سيدي الشيخ محمد علي سلامه رضي الله عنه وأرضاه يا بني - وهذا في البداية - سيأتيك إخوان لك صالحين بعضهم يأتي في الليل وبعضهم يأتي في النهار وبعدما قال هذا القول أكون نائما واستيقظ فجأة فأشعر أن هناك رجل بالباب يأتي لزيارتي لأن الله عز وجل أمرنا أن نفتح أبوابنا للطالبين والمريدين وهذه تجارتنا مع الله عز وجل فليس عندنا حُجّاب ولا سكرتارية ولا شئ من هذا لأن هذه الأشياء كلها لم تكن موجودة علي باب رسول الله صلي الله عليه وسلم فقد كان الكل يدخل عليه صلي الله عليه وسلم بلا مانع آلا إذا كان في حالة نزول الوحي أو خلوة بربه أو نائماً ولكن مثل هذه الامور التي نسمعها لا نجد لها سنداً شرعياً في طريق القوم وعندما رأي الامام أبا العزائم رضي الله عنه وأرضاه أحد مريديه يجلس أمامه ورأسه بين ركبيته ولا يرفع رأسه قال يا بني لا تجلس هذه الجلسة فأنا لك إما أب وإما أخ أكبر والأب أو الأخ الأكبر لا يحب أحدهما أن يري إبنه أو أخيه مُتْعباً في جلسته وليس هذا يابني الأدب معي ولكن الأدب معي أن تحفظ نفسك من المعاصي وأنت بعيد عني وكأنك تلاحظ أني أراك في خلواتك وجلواتك فتمتنع عن معاصي الله عز وجل فليس الشأن أن تجلس أمامي بالأدب والخشوع وعندما تنصرف من أمامي تتصرف علي حسب هواك لأن هذا ليس من أدب

الصالحين ولا أدب العارفين وقد قال في ذلك سيدي أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه وأرضاه: ليس بشيخ من لم يمد مريده من وراء حجاب. هذه باختصار يا أخي الآداب الضرورية وباب الأدب كبير وكتاب الله عز وجل مملوء بهذه الآداب.

نسأل الله عز وجل لكم جميعاً القرب من حضرته وأن يدخلنا جميعاً في معيه حبيبه ومصطفاه وأن يجمعنا علي كُمل الصالحين من عباد الله وأن يجعل قلوبنا ترتوي من نبع الحكمة في قلوب العارفين بالله ويجعل دروسهم نافعة في قلوبنا وثمارهم شهية لنفوسنا وراحهم راوية لأرواحنا وأن يجعلنا في الدنيا والآخرة من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

وصلي الله علي سيدنا محمد وعلي آله وسحبه وسلم.

قال الإمام أبو العزائم رضي الله عنه:

نور الوراثة لاح للأبصار	وضيا الفتوة لاح بالأسرار
شهد الرجال حقائقاً لم تَظْهرا	إلا لأهل الكشف والأخيار
ما قد مضي قد عاد نوراً مشرقاً	من سادة الأبرار والأخيار
علم وحال حجة نبوية	راح طهور دار بالمدرار
قد أسكر الأرواح راح محمد	طه الحبيب المصطفي المختار

ويقول سيدي ابراهيم التازي (دفين وهران) في أسرار زيارة الصالحين:

زيارة أرباب التقي مرهم يَبْري	ومفتاح أبواب الهداية والخير

وتُحْدِث في الصــدْر الخَلــيّ إرادة وتشرح صدرا ضاق من سِعَة الوزر
وتنصر مظلوماً وترفــع خامــلاً وتكسـب معدومــاً وتجبر ذاكــر
فكم خلَّصت من لُجّة الاثم فاتكا فألقته في بحر الانابة والبـــــر
وكـــم من مريد أظفرته بمرشـد خبير بصير بالبلاء ومــا يبـري
فألقـــي عليـــه حُلـــة يمنيــة مطـــرّزة بالفتح واليُمن والنصر
عليـــك بهـــا فالقوم باحوا بسرّها ووصّوا بها يا صاح في السرّ والجهر
فـزر وتأدب بعـد تصحيـح نية تـأدب مملـوك مـع المالك الحر
ولا فرق في أحكامها بين سـالك مُربّـي ومجذوب، وحي وذي قبر
وذي الزهد والعباد فالكل مـنعم عليه ولكن ليست الشمس كالبدر

ويقول ابن عجيبه رضي الله عنه في الأدب مع الشيخ المربي:

مع الشيخ آداب إذا لم تكـن لــه فإنــه فـــي واد القطيعــة راتـع
خضـوع، وهيبــة، وصـدق محبة وعقل كمال فيــه : إنـــه جامــع
فلا ترفعن صوتاً إذا كان حاضرا ولا تضحكن فالضحك فيه فجائع
ولا تعتــرض أصـــلاً عليـــه فإنه بنور شهـود للبصيـــرة تابـــع.
ولا ترمـــين عينـــاً إلي مـــاء غيـره فتُرْمي كسيراً في المعاطـش ضائع
ولا تخرجن من عُشّ تربية غدت تمـدّك بالأنـــوار منهـــا تتابـــع
الي أن تري الترشيد قدحان وقته وصرت من التمكين أمرك شائـــع
تمد من الأنـــوار من كل وجـــهة وتسقـــي من الأنام مَنْ هـــو تابع

وصلي الله علي سيدنا محمد وعلي آله وصحبه وسلم.

الفصل الخامس

أحوال الولى المجذوب

- العقل واحوال المجاذيب
- أدب السؤال لأهل الجذب .
- الصحو والمحو
- القرب والبعد
- لطائف الأرزاق
- عبادة الأنفاس

كان هذا الدرس بمنزل الحاج السيد إبراهيم سالم ١١٤ ش ١٠٥ حدائق المعادي بالقاهرة يوم الجمعة ٩ من ربيع الآخر ١٤١٧هـ الموافق ١٩٩٦/٩/٢٣م عقب صلاة الجمعه.

سيدي عمر بن الفارض رضي الله عنه وأرضاه دخل الجامع الأزهر فرأي رجلاً يتبول في مكان الوضوء وهذا الرجل كان من أهل الجذب وأهل الجذب يسقط عنهم التمييز ولذلك لا ينفع معهم ميزان العقل فذهب إليه لينهره لعدم التبول في هذا المكان فقال له يا عمر أنت لن يفتح عليك هنا والفتح لن يتم لك إلا في مكة فقال له وكيف أصل إلي مكة؟ فقال له هذه أمامك فنظر أمامه فوجد الحرم فدفعه بيده فوجد نفسه في الحرم فمكث اثنا عشر ة سنة في غار حراء وصحراء مكة في حالة جذب وبعد قضاء هذه المدة وجد الذي يحدثه ويقول له يا عمر احضر عندي الآن لأني سأموت لتصلّي عليّ وجذبه بيده فوجد نفسه أمام الشيخ ورأه يعالج سكرات الموت ومات في نفس اليوم وصلي عليه ودفنه

العقل وأحوال المجاذيب

هذه الأحوال كيف نزنها بالعقل؟

ليس لها ميزان لماذا لا يصلح أن نزن أحوال أهل الجذب بالعقل؟

لأنهم سقط عنهم التمييز فالذي يريد أن يصحب أهل الجذب لا يزن أحوالهم بميزان العقل أولاً

أدب السؤال لأهل الجذب

وثانياً يعمل بالوصية التي وصّي بها الخضر سيدنا موسي عليه السلام **«فلا تسألنى عن شئ حتى أحدث لك منه ذكراً»** [الآية (٧٠) الكهف] فلا يتعجل الأمور فأهل الجذب تحدث منهم أشياء ربما لا ينكشف أمرها فى الحال بل

قد لا تفك رموزها الا بعد سنة أو بعد أكثر فلا يتعجل لأنه ربما يتعجل مع أحدهم ويكون في حالة الجلال فيقضي عليه بقضاء ويكون هو الجاني علي نفسه كالرجل الذي قال لزوجته عندما أكون في الخلوة لا يدخل عليّ أحد، فدخلت عليه امرأة من الجيران فجأة فقال لها اقعدي فأُقعدت فأرادت أن تتكلم فقال لها اخرسي فصارت خرساء كسيحة لماذا؟ لأنها دخلت من غير أدب فالواجب الدخول علي الأولياء والصالحين في هذه الحالة بإذن وبالأدب ولا يسألهم عن شئ والأيام ستكشف له هذه الأمور فالذي يصحبهم يعمل بقول الله **«لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم»** [الآية (١٠١) المائدة] عندما يحضر ميعادها تظهر فالكلمات القدرية من هذا المنوال يتركها الانسان إلي أن يأتي اليوم الذي تفك فيه فيضع الكلام في ذهنه والأيام تكشف له حقيقة هذا الكلام.

الصحو والمحو

وعليه بعد ذلك أن يميز أطوار الصالحين في حالة الصحو وأحوالهم في حالة المحو فالذي في حالة الصحو غير الذي في حالة المحو، الذي في حالة الصحو حتي ولو كان من كمل العارفين أعلم علم اليقين أنه في هذه الحالة لن يخرج عن الشريعة طرفة عين اذن فالذي يخرج عن الشريعة وهو في حالة الصحو ليس منهم وهذه علامة علي أنه مُدّعي أما في حالة المحو فإذا أخذ ما وهب أسقط ما وجب وأنا لست مطالب أن أقتدي به في هذه الحالة فسيدي أحمد البدوي رضي الله عنه وأرضاه كان في حالة المحو يقف أربعين يوماً علي السطح لا يأكل ولا يشرب ولا ينام وهل أنا أستطيع محاكاته في هذا الأمر؟

لو فكرت في ذلك أهلكت نفسي لأن هذه حالة لا يُتابع فيها ولأن هذه حالة هو مُعان فيها لكن أنا إذا عملت مثله أكون أقمت نفسي وقد قالوا في الحكمة «إذا أقاموك أعانوك» فإذا أنت أقمت نفسك كيف تأخذ الاعانة وهكذا كل الأحوال التي تحدث للصالحين كالذي يصوم أربعين يوماً ويفطر علي تمرة من الذي يستطيع محاكاته في ذلك في حالة الصحو؟

بل هو نفسه في حالة الصحو لن يقدر علي هذه المهمة لكن في حالة المحو لن يشعر بها لأنه أخذ الوراثة في قوله صلي الله عليه وسلم **«أبيت عند ربي فيطعمني ويسقيني»** إذن لا بد من التمييز بين حالة الصحو وحالة المحو في حالة الصحو كيف أعرف الصادق من المدعي؟ بميزان الشرع فالصادق لا يترك الشرع طرفة عين ولا أقل فهذا الامام الشبلي رضي الله عنه قد وصل به الحال إلي أنهم اتهموه بالجنون وأدخلوه المارستان وكان أميراً من الأمراء وعندما أخذته حالة الوله ترك الحكم وخرج هائماً علي وجهه مولها بذكر مولاه وعندما أوشك علي الموت أخذ يبكي بكاءاً شديداً فقيل له ماذا يبكيك؟ فقال أنا ظلمت رجلاً وأخذت منه ديناراً ولم أردّه إليه وقد تصدقت عنه بألوف وبحثت عنه في كل مكان فلم أجده وأخاف أن يطالبني به عند ربي يوم القيامة مع أنني تصدقت عنه بألوف مؤلفة لكنه حق من حقوق العباد يستوجب مسامحة صاحبه فكان كل الذي يخوّف الامام الشبلي رضي الله عنه وأرضاه عند الموت هو دينار واحد أما الأمر الثاني فهو أنه عند نزع روحه من جسده وبعد أن كفّ لسانه عن الكلام أشار إلي الذي بجواره أن يوضأه فنسي تخليل لحيته فأخذ يده ووضعها علي لحيته فقالوا حتي في هذه الساعة لم ينس سنة من سنن الوضوء وهذا ما يدل علي أن هؤلاء الصالحين في حالة الصحو يكونوا منتبهين أشد الانتباه لشريعة رسول الله صلي الله عليه وسلم فما دام في حالة الصحو لا يتركها لحظة

ولا أقل فالذي في الصحو ويترك السُّنة نقول له أنت لست من الصالحين لأنهم قالوا «حافظ علي السُّنة ولو بشرت بالجنة» فهذا سيدنا أبو بكر بُشر بالجنة ولكنه قال «لا آمن مكر الله ولو كانت إحدي قدمي في الجنة» وجاء أبو العزائم فقال: «لا آمن مكر الله ولو دخلت الجنة فإبليس دخل الجنة وطرد منها» ولذلك فالعصمة في اتباع السنة أما في حالة المحو فليس عليه شئ وأنا غير مطالب بمتابعته في هذا وقد قال في ذلك سيدي محي الدين بن عربي رضي الله عنه:

ما حرمة الشيخ الا حرمة الله	فقم بها أدباً لله بالله
هم الأدلاء والقربي تؤيدهم	علي الدلالة تأييداً علي الله
كالأنبياء تراهم في محاربهم	لا يسألون من الله سوي الله
فإن بدا منهم حال تُولِّههم	عن الشريعة فاتركهم مع الله
لا تتبعهم ولا تسلك لهم اثراً	فإنهم ذاهلون العقل في الله
لا تقتدي بالذي زالت شريعته	عنه ولو جاء بالأنبا عن الله

فلا أعترض عليه ولا أقتدي به لأنه ليس قدوة في هذا المقام فحاله مُسلَم له ولكني لا أقتدي إلا بالذي في حالة الصحو لأنه تَابَع الكمال المحمدي هذه بعض الآداب التي يجب أن آخذ نفسي بها في متابعة العارفين رضي الله عنهم وأرضاهم.

القرب والبعد

بقي شئ مهم واخواننا يشغلون أنفسهم به فلان هذا تكاسل وفلان هذا لم يعد يحضر وفلان أصابه فتور أو الطريق نريد أن نفتحه في البلد الفلانية وفي الحقيقة فإن العارفين أراحوا أنفسهم من هذا كله لأنهم يعلمون علم اليقين أن

الفتح بيد الله يعطيه الله عز وجل لمن يشاء من عباده فلو أقبل الخلق كلهم عليهم لم يكن لهم شأن بذلك وكذلك لو أدبر الخلق عنهم جميعاً لن يحزنوا ولا يغضبوا لأنهم يريدون اقباله عز وجل فإذا أقبل علبهم فهذا فرحهم وإذا أدبر عنهم كانت هذه جهنم بالنسبة لهم.

فنظرة منك يا سؤلي ويا أملي   أشهي عليّ من الدنيا وما فيها
العيد لى مأتم إن غبت يا أملي   والعيد ما كنت لي مرأي ومستمعاً

فهمهم كله في اقبال الله عليهم وخوفهم الأعظم من حصول الصدود والجفا منه إليهم لكن الخلق يقربون منهم أو يبعدون عنهم هذا شئ لا يشغلهم لماذا؟

لأن الأمر بالنسبة للخلق كما قال الله عز وجل **«من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها»** [الآية (٤٦) فصلت]فهم لا يريدون شيئاً من الخلق فمن يتقرب فلنفسه ومن يبتعد فعلي نفسه أما العارفون فهمهم رضاء الله عز وجل قال في ذلك الامام أبو العزائم رضي الله عنه:

أنا لا أخاف وحقه من ناره   كلا ولا أبغي الجنان لطيبها
فالقرب منه جنتي ومحاسني   والبعد عنه ناره ولهيبها

فنار الجحيم بالنسبة لهم أنه عز وجل يبعد عنهم طرفة عين فبعض المريدين يظنون أن الصالحين يهمهم بُعد الناس وقربهم ولذلك يهيئ إليهم أن العارفين يريدون الخلق لأنهم يريدون أن يكون هناك جمع حولهم فالذي يشغل نفسه بهذا الأمر تكون عنده منازعة للربوبية في تصريفها لأن هذا أمر من أمور الربوبية.

لطائــــف الأرزاق

سـألوا الشـيخ أبو مـدين الغـوث رضي الله عنه وأرضـاه وكـان رجـلاً من الصالحين الذين أقامهم الحق للعباد وسموه شيخ الشيوخ لأنه لم يمت حتي ربي ألف شيخ كلهم من أهل الكشف والكرامات كيف تحصل علي رزقك؟

فقال للسائل: لو حضر عندك ضيف هل يصح أن يشتري لنفسه أكلا؟ فقال لا، فقال ولم؟

قال لأن هذا يكون عاراً عليّ: فقال، من الذي يأكله؟ فقال: أنا، قال: وكم مدة الضيافة الشرعية؟ قال ثلاثة أيام فقال له أنا ضيف علي الله ولما تحسب عمري عند الله لن يُحصل يوماً من الثلاثة أيام لقول الله عز وجل «**إن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون**» [الآية (٤٧) الحج] فأحد العلماء الحاضرين قال له لكن لابد من الأخذ بالأسباب فنسألك عن السبب فقال له أنا لم أترك الأسباب بل أخذت بأقوي الأسباب وهو قوله عز وجل «**ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب**» [الآيتان (٢، ٣) الطلاق] وهذا هو سببنا فالتقوي هنا سبب الرزق من غير حساب فهؤلاء الرجال ضيوف علي الله عز وجل وهم أحبابه وأصفياؤه والقائمون بأمره عز وجل بين عباده وقد قال عز وجل في حديثه القدسي «إذا كنت أرزق من غفل عنّي وعصاني فكيف لا أرزق من أطاعني ودعاني» وهذا سيدي أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه وأرضاه عندما كان في جبل شاذله يتعبد وجاءه النداء من الله يا أبا الحسن إنزل اهدي الناس إلينا فقال يارب أتتركني إلي خلقك هذا يعطيني وهذا لا يعطيني فقال يا أبا الحسن «إذا أقمناك أعناك» أنفق إن شئت من الغيب وإن شئت من الجيب « **هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب** » [الآية (٣٩) ص] أيعطي لهم العطاء الروحاني ويمنع عنهم العطاء الدنيوي؟

لا يكون، فهذه الأمور تحجب السالكين عن المنازل العليا في صحبة الصالحين وقد صحبت في بدايتي قبل الامام أبي العزائم جملة من الصالحين وكان منهم الشيخ إبراهيم عمار رضي الله عنه وأرضاه وكان أمياً وتاجراً للخضار وجاء له الحال فسكن في جبل وأخذ يتعبد لله عز وجل إلي أن ثبت الله عز وجل حاله وأقامه لهداية الخلق وكان ينتقل في البلاد وليس له بيت ثابت فكان أول ما يدخل بيت يقول لهم اهدموا الفرن فيقولون له ولم؟

فيقول لهم إحنا لسه هانعجن ونخبز أمال هو شغلته إيه فكان أول أمر يأمره هو هدم الفرن ويأتيه الرزق من غير حساب جلست معه مرة في مولد سيدي أحمد البدوي في طنطا في لوكاندة مصر فقال أنا عاوز آكل ملوخية خضرة يا أولادي ولم ينتهي الكلام حتي دخل علينا جماعه من الأحباب والمريدين يحملون حلة ملوخية ساخنة وكان هذا دأبه ولذا كان لا يدخر فالذي يفتح به الله عليه يخرجه أولاً بأول لأنه لو ادخر ينقطع عنه المدد فهذا هو الشرط الذي شرطه رسول الله صلي الله عليه وسلم علي أهل الصُفّة في مسجده كيف كانوا يأكلون؟

مما يقدمه لهم رسول الله ولما مات رجل منهم وفتّشوه فوجدوا معه درهمين قال النبي صلي الله عليه وسلم لهم: **«كيّتان من النار»** لأن هذا حُكمه عدم الادخار فعندما يجوع يحضرون له الأكل ووقت أن يتعري يجد الكسوة إذن لماذا يدخر؟ وهذا حكم خاص لا ينفع معنا ولا نستطيع أن نطبقه علي أنفسنا وهذا حال خاص أقام الله عز وجل فيه هؤلاء الخواص فلا يجب علينا أن نقيسهم بالمقياس العقلي أو نزنهم بالميزان النفسي لأن الله عز وجل جعلهم في دائرة **«يرزق من يشاء بغير حساب»** [الآية (٣٧) آل عمران] وكذلك لا يهمهم من أدبر أو من أقبل لأنهم مشغولون بالله عز وجل وهم كما قالت السيده رابعة العدوية رضي الله عنها وأرضاها:

راحتـــي يا أخوتـــي في خلوتـــي وحبيبـــي دائمـــا في حضـــرتي
لم أجـد لي عـــن هـــواه عوضـــاً وهـــواه فـــي البرايـــا محنتـــي
حيثمـــا كنـــت أشـــاهد حسنـــه فهـــو محـــرابي إلـــيه قبلتي
إن أمـــت وجـــداً ومـــا ثم رضا واعنائـــي في الـــوري واشقوتي
يا طبيـــب القلـــب يا كل المـــني جُدْ بوصـــل منك يشفـــي مهجتي
يا ســـروري وحيـــاتي دائمـــاً نشأتـــي منك وأيضـــاً نشـــوتي
قـــد هجرت الخلـــق جمعاً أرتجي منـــك وصـــلا هيّا فاقضي مُنيتي

ليس لهم الا غيره ولذلك فهذه الأمور يا اخواني ينبغي ألا نضعها في ذهننا .

عبـــادة الأنفـــــاس

بقي شئ واحد وهو ألا أحاول التشبه بالعارف بأحواله في حال نهايته الا إذا تدرجت في التشبـه به في حـال بدايته وهذا هو المزلق الذي ينزلق فيه كثير من السـالكين ينظر إلي العـارف في حـال الوصـول والتـمكين ويغـفل مـا قـبلهـا من المجـاهدات الفـادحـة فـفـي حـالة الوصـول والتمكين عـبـادة العـارف بـالأنفـاس والأنفاس لا يراها الجلاس وإنما من القلب إلي مقلب القلوب فيكون مع الناس أو مع الملأ لكن قلبـه في خلوة مع ربه عـز وجل فلو حـاولت أن أتابعـه في هذه الأحوال مباشرة فلن أستطيع إلا إذا نظرت إليه في حال بدايته قبل وصوله إلي هذه الحالة لأنه في هذه الحالة النفس الواحد يقولون فيه «نفس العارف خير من عمل العباد والزهاد لآلاف السنين» لأنه يتنفس النفس وهو في حـالة صفـاء كلي وقد سألوا رجلاً من العارفين من أهل المغرب عن كيف تكون عبادة الأنفاس»

فقال لهم لا تطيقون ذلك فقالوا نريد أن نري لها مثلاً عملياً علي قدرنا فقال هيّا معي إلي الغابة فتنفس نفساً في ذكر الله عز وجل فخرجت شرارة من قلبه

فأحرقت الغابة بأكملها فقال لهم: سئل أحد العارفين إذا أُطفأت نار جهنم كيف يوقدها الله عز وجل؟

فقال يسلط عليها شرارة من نار محبة العارفين لحضرته فتوقد منها نار جهنم وهذا الذي قال فيه الامام أبو العزائم رضي الله عنه وأرضاه:

أنا لو أبــوح ببعـض ما بـــي   لأحــرقت المشـــارق والمغـــارب

وولعــت القلـــوب بحـــب ذات   تحلّـــي مــن حُلاها كل طـــالب

فالنفس الواحد من عبادة الأنفاس التي ليست بالحواس ولا يطّلع عليها الجلاس لا يقاس بشئ في دنيا الناس وإنما من القلب إلي مقلبه عز وجل حتي أن الملائكة لا تطلع عليها ولا تستطيع أن تكيفها لتسجلها وهذا ما قال فيه الله عز وجل في الحديث القدسي «الاخلاص سر من أسراري استودعته قلب من أُحب من عبادي لايطلع عليه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده» فعبادة الأنفاس الذي لم يصل إليها يري العارف وهو يتحدث مع هذا أو شاغل وقته في الحديث مع هذا فيظنه غافلاً عن ذكر الله عز وجل مع أن الأمر كما قال الامام أبو العزائم رضي الله عنه:

في كل نفــس له نـــور يواجهـــه   من حضرة القدس ترويحاً وتيقيناً

وكما قالت السيدة رابعة رضي الله عنها وأرضاها:

ولقد جعلتـــك في الفـؤاد مُحّدثي   وأبحت جسمي من أراد جلوســـي

فالجســم مني للخليـــل مؤانــس   وحبيـــب قلبي فـــي الفؤاد أنيس

لكن أنا أخذ بأحواله في البداية ومن لم يكن له بداية محرقة لم تكن له نهاية مشرقة. وصلي الله علي سيدنا محمد وعلي آله وصحبه وسلم.

وإلي اللقاء في الكتاب القادم (أبواب القرب ومنازل التقريب)



الفهـــرس

دار الإيمان والحياة تقدم

كتــــب للمـــــؤلف

أ – من أعلام الصوفية المعاصرين:

١– الامام أبو العزائم المجدد الصوفي.

٢– الشيخ محمد علي سلامة سيرة وسريرة.

ب– الايمــــان والحيــــاة.

٣– زاد الحــــاج والمعتمــر.

٤– نفحات من نور القرآن (الجزء الاول)

٥– مائدة المسلم بين الدين والعلم. (ترجم إلى الانجليزية والاندونيسية)

٦– طريق الصديقين إلي رضوان رب العالمين (ترجم إلى الأندونيسية)

٧– حديث الحقائق عن قدر سيد الخلائق

٨– مفاتــح الفــــرج. (ترجم إلى الأندونيسية)

٩– تربية القرآن لجيل الايمان. (ترجم إلى الانجليزية والأندونيسية)

ج– رسائــل الصفـــاء.

١٠– الصوفية والحياة المعاصرة.

١١– الصفاء والأصفياء

تحــت الطبــع للمؤلـــف

١– نفحات من نور القرآن (الجزء الثاني)

٢– أبواب القرب ومنازل التقريب

٣– أهل العناية في منازل الولاية.

تطلب مطبوعات الدار
من الأماكن التالية

١- الزقازيق : حى السلام ش عمرو بن العاص - مسجد جمعية الدعوة إلى الله

٢- ديرب نجم : جمعية الدعوة إلى الله -- خلف المدرسة الثانوية للبنات.

٣- الجميزة / غربية : دار الصفا.

٤- بنها : جمعية الدعوة إلى الله - المنشية - ٧ ش شريف باشا متفرع من ش وهبة.

٥- محافظة المنيا - مغاغة: جمعية آل العزائم «مسجد آل العزائم»

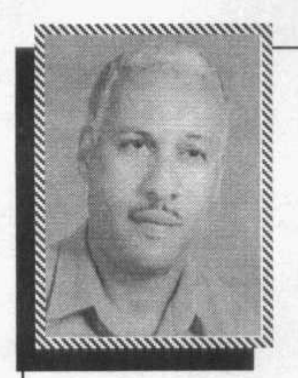
٦- محافظة قنا - العديسات قبلى - نجع علوان : جمعية الدعوة إلى الله.

٧- محافظة الإسماعيلية - سرابيوم - عزبة القراقرة

مهندس / عبد العزيز عبد السلام.

٨- الدراسة : دار جوامع الكلم.

٩- مكتبات القاهرة.



المؤلــــف فى سطــــور

فوزى محمد أبو زيد

تاريخ ومـحل الميـلاد : ١٨/١٠/١٩٤٨ الجـمـيـزة مركز السنطة محافظة الغربية.

المؤهـــــــــل : ليسانس كلية دار العلوم ١٩٧٠م

العمـــــــــل : مدير اعدادى بالتربية والتعليم.

مقـــر الاقامـــة : الجميـــزة - غربيـــة

النشـــاط :

- يعمل رئيساً للجمعية العامة للدعوة إلى الله بجمهورية مصر العربية والمشهـرة برقم ٢٢٤ ومـقـرها الرئيسى ٧٤ ش ١٠٥ حـدائق المعـادى بالقاهرة ولها فروع فى جميع أنحاء الجمهورية.
- يتجول فى جميع انحاء الجمهورية لنشر الدعوة الاسلامية وإحياء المثل والاخلاق الايمانيـة بالحكمة والموعظة الحسنة بالاضافة إلى الكتابات الهادفه إلى إعادة المجد الاسلامى.

دعــوته:

- ☆ يدعو إلى نبذ التعصب والخلافات بين المسلمين والعمل على جمع الصف الاسلامى واحياء روح الاخوة الاسلامية والتخلص من الاحقاد والاحساد والأثره والانانية وغيرها من أمراض النفس.
- ☆ يحرص على تربيـة أحبابه على التربيـة الروحيـة الصافيـة بعد تهذيب نفوسهم وتصفية قلوبهم.
- ☆ يعمل على تنقية التصوف مما شابه من مظاهر بعيدة عن روح الدين وإحياء التصوف السلوكى المبنى على القرآن وعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام.

رقم الايداع: ١١٦٣٢ / ١٩٩٦
طبع بدار نوبار للطباعة